الدكتور عزت السيد أحمد

الأيديولوجيا والعلم

العلاقة بين الأيديولوجيا والعلم والفهم

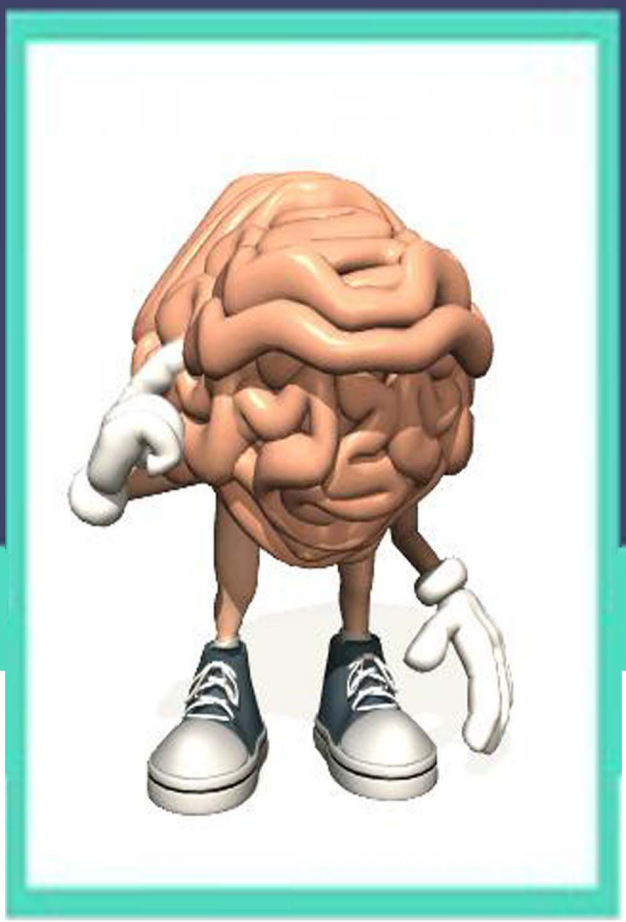

دار فن وعلم
طبعة 2017 بلس

عزيز السيد أحمد

الأيديولوجيا والعلم

العلاقة بين الأيديولوجيا والعلم والتقدم

بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتور عزت السيد أحمد

الأيديولوجيا والعلم

العلاقة بين الأيديولوجيا والعلم والفهم

دار فن وعلم

طرا 2017 بلس

☆الكتاب : **الأيديولوجيا والعلم**☆

☆ العلاقة بين الأيديولوجيا والعلم والفهم☆

☆ الكاتب: **عزت السيد أحمد** ☆

☆ عدد الصفحات: ١٣٨ صفحة ☆

☆ قياس الصفحة: ب ٥ = ١٧ X ٢٤ ☆

☆ تصميم الغلاف بريشة المؤلف ☆

☆ **الحقوق جميعها محفوظة** ☆

☆ تمنع طباعة هذا الكتاب أو بعضَه بأيِّ وسيلةٍ ☆

☆ من وسائل الطِّباعةِ والنَّشر والإعلام ☆

☆ من دون موافقةٍ خطيَّة من المؤلِّف ☆

☆ النَّاشر: **دار فن وعلم** ☆

☆ طرابلس **٢٠١٧م** ☆

الإهداء

إلى ذكرى

أستاذي الدكتور نايف بلوز

الذي تم هذا البحث بإشرافه

أهدي هذا الكتاب

مقدّمة

مقدِّمة الكتاب هٰذه هي الوحيدة الجديدة فيه وما بقي منه من ألفه إلىٰ يائه إنما هو بحث كتبته عام ١٩٩١م إبان دراستي في دبلوم الدراسات العليا في الفلسفة حقلة بحث لمقرر المناهج والإبستمولوجيا بإشراف المرحوم الأستاذ الدكتور نايف بلوز.

لم يطل الأمر بالبحث كثيراً في انتظار النشر فقد تأتى له النَّشر سريعاً إذ نُشر في تشرين الأول من عام ١٩٩٢م في العدد ٣٤٩ من مجلة المعرفة الصَّادرة عن وزارة الثَّقافة بدمشق، تحت العنوان ذاته الأيديولوجيا والعلم، وكان رئيس التَّحرير حينها الأديب الكبير بأدبه وأخلاقه الأخ العزيز **عبد الكريم ناصيف** الذي أوجِّه له الآن تحية إكبار وتقدير. وهو المشهود له بالنَّزاهة والكفاءة، وقد نال البحث في ذٰلكَ الحين تقديره وإعجابه فسارع إلىٰ نشره، ولم يكن يهمل غيره مما كان يرد إلىٰ المجلة، فقد كان متابعاً مواظباً بعد فترة الانهيار التي عاشتها المجلة

بسبب اللامبالاة الهائلة والاستهتار الشَّديد من قبل رئيس التَّحرير السَّابق الذي نسيت اسمه علىٰ شهرته.

إذن البحث الأصل منشور في العدد المذكور آنفاً من مجلَّة المعرفة السُّورية الصادرة عن وزارة الثقافة، يمكن الرجوع إليه بسهولةٍ لمن أراد، بل إنَّ البحث في حدود علمي موجود في بعض مواقع الإنترنت نقلاً عن مجلة المعرفة، مما يجعل العثور عليه والمطابقة أمراً أيسر من اليسير.

وعلىٰ أساس هٰذا الإيضاح أقول: إنَّ هٰذا الكتاب هو البحث ذاته الذي كتبته عام ١٩٩١م ونشرته بعد نحو سنة أي عام ١٩٩٢م في المجلة المذكورة، ولم أضف إلا النَّزر اليسير واليسير جدًّا إلىٰ البحث المنشور في مجلة المعرفة والإضافة إنَّمَا كانت في الفترة ذاتها لا بعدها ناهيكم عن فقراتٍ قليلةٍ أو بعض السُّطور التي حذفتها من البحث تصغيراً لحجمه كي يناسب المجلة، وتمكن المقارنة والمطابقة بَيْنَ هٰذا الكتب والبحث المنشور في المجلة في عام ١٩٩٢م.

قد يتساءل متساءلٌ: وكيف انتفخ البحث الذي هو جزء من مجلة إلىٰ أن يكون كتاباً من دون إضافات؟

المسألة بسيطة في حقيقة الأمر ولا تحتاج إلىٰ عناء تفكيرٍ ليتحقق الفهم، السَّبب في الفرق بَيْنَ الحجمين؛ حجم البحث في المجلة وحجم البحث في الكتاب هو صغر حجم الخط في المجلة من جهة أولى وكبره أكثر في الكتاب، ومن جهة ثانيةٍ فإنَّ تخصيص عناوين الفقرات وتحويلها إلىٰ فصول قد أضاف إلىٰ عدد الصَّفحات ما لا يقل عن أربع وعشرين صفحةً وكان

حجم البحث في المجلة نحو خمس وثلاثين صفحة فيما أذكر... وبذلك ينتهي اللغز.

مرَّةً أُخْرَىٰ أكرِّر لا داعي لمزيد من التَّساؤل والمماحكة فالبحث كما هو في المجلة موجودٌ ليس من العسير الحصول عليه يمكن المقارنة والمطابقة.

الحقيقة أنَّي لست مضطراً لهٰذا الكلام التَّقديمي كله لولا التَّحسب من الطَّعانين هواة المماحكة والمجادلة... فمن يعرفني لا يحتاج أن أطيل له في الشَّرح والتبيان يكفيه أن أقول إنَّهُ كذا وكذا وانتهى الأمر.

بل كان من الممكن والسَّهل جدًّا أن لا أشير إلىٰ تاريخ البحث وتنتهي المشكلة أساساً. فالبحث لا يقلِّل تاريخه من قيمته ورُبَّما لا يزيد فيها، فهو كما هو الآن ومن قبل ومن بعد، ولم تتغيَّر رؤيتي فيه ولا أظنُّها تتغير. ومن ثَمَّ فإن كتبته اليوم أو قبل أربعين سنة فلا فرق في القيمة، وإنَّما أردت ذكر تاريخه لوضعه في سياقي التَّاريخي بالنِّسبة لي أنا ولمن يتابع الأمر من النَّاحية التاريخيَّة ومن يعنيه تاريخ كتابة البحث.

تراجع الاهتمام بالأيديولوجيا والدراسات الأيديولوجيا كثيراً جدًّا عقب انهيار الاتحاد السوفيتي حَتَّىٰ بات الاهتمام بها شبه منعدم في نحو السَّنوات العشر الأخيرة أو تزيد قليلاً ونحن اليوم في عام ٢٠١٧م، وفي السَّنوات العشر التي سبقتها كان الاهتمام بها جدُّ ضيئل ولٰكنَّهُ موجودٌ بطريقةٍ أو بأخرى.

من الطَّرافة بمكان أن يكون انهيار الاتحاد السُّوفيتي هو السَّبب في انهيار الاهتمام بالأيديولوجيا مثلما وجود الاتحاد السوفيتي هو سبب كثرة الاشتغال في الأيديولوجيا.

ولا غرابة إذ ذاك أن نعلم أيضاً أنَّ الاهتمام بدراسة الأيديولوجيا والتَّنظير الأيديولوجي قد تصاعد بوتاشر متسارعة عقب الحرب العالميَّة الثَّانية مع نشأة الاتحاد السُّوفيتي وكأن نشأة الاتحاد السُّوفيتي هو السَّبب في ولادة الأيديولوجيا.

نعم الصِّراع بَيْنَ الشَّرق والغرب؛ الشَّرق الغربي والغرب الغربي، بَيْنَ المعسكر الشِّيوعي والمعسكر الرأسمالي كان صراعاً أيديولوجيًّا بالدَّرجة الأولى وربَّما الأخيرة علىٰ الرَّغْمِ من كلِّ أنواع التَّهديدات العسكريَّة والمظاهر العسكريَّة للصِّراع وسباق التَّسلح، وسباق التَّسلح أمرٌ قائم بالضَّرورة أكان ثَمَّة صراع مباشر أم لم يكن فهٰذه طبيعة السُّلطة والدَّولة.

أساساً لم يكن الاهتمام بالأيديولوجيا منقطعاً قبل الحرب العالميَّة الثَّانية ونشأة الاتحاد السُّوفيتي، لقد كان موجوداً وبوفرة علىٰ نحوٍ خاصٍّ علىٰ امتداد السَّاحتين الأوروبيَّة والأمريكيَّة، ولٰكن ليس علىٰ النَّحو الغزير والكبير الذي كان ممتدًّا ما بَيْنَ نهاية الحرب العالميَّة الثَّانية ونهاية الاتحاد السوفيتي.

من الطَّبيعي أن يتساءل متسائلٌ: لماذا ارتبط الاهتمام بالأيديولوجيا بالاتحاد السُّوفيتي؟

الحقيقة في نظري عائدةٌ إلىٰ أنَّ **كارل ماركس**، الذي هو مرجعيَّة الفكر الاشتراكي والشِّيوعي، هو الذي منح الأيديولوجيا هٰذا الزَّخم من الاهتمام والعناية لمحاربة الرأسمالية وقد اعتبرها ومن تلاه من أسلافه أحد أبرز الأسلحة في مواجهة الرأسماليَّة ومحاربتها.

من هنا ندرك لماذا ارتبط الاهتمام بالأيديولوجيا بوجود الاتحاد السُّوفيتي من ناحيةٍ أولى، والنَّاحية الثَّانية وهي الأكثر أهميَّة هي أنَّ أكثر من تسعين بالمئة

من الدِّراسات المعنية بالأيديولوجيا صدرت عن مفكرين وفلاسفة شيوعيين سواء أفي أوروبا أم أمريكا أم سائر بقاع العالم.

ومع انهيار الاتحاد السُّوفيتي ونهاية المنظومة الاشتراكية وإعلان هزيمة المعسكر الشِّيوعيِّ ونهاية أيديولوجيته بدا أنَّ الأيديولوجيا قد انهارت أيضاً. ولهٰذا وهم، الأيديولوجيا لم تنته ولا تنتهي. أقول ذٰلكَ علىٰ الرَّغْمِ من أنِّي في فترة كتابة هٰذا البحث وضعت في تصوُّري مخطَّطاً لوضع كتاب بعنوان انهيار عصر الأيديولوجيا. وكنت دقيقاً في تصوري: أتحدث عن انهيار عصر الأيديولوجيا لا عن انهيار الأيديولوجيا، تماشياً مع سلسلة الانهيارات التي كنت قد كتبتها والتي كنت أخطِّط لكتاباتها وقد نشر منها حَتَّىٰ الآن ثمانية كتب وهي حسب التَّرتيب الهجائي لا تاريخ النشر:

١. انهيار أُسطورة السَّلام؛ مصير السَّلام العربي الإسرائيلي . الطبعة الأولى: مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٦م. الطبعة الثانية: دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٣م.

٢. انهيار إنسانية الإنسان . دار العالم العربي . عمان . ٢٠١٥م.

٣. انهيار أوهام فوبيا الإسلام . كيملك ياياناان . قيصري/ تركيا . ٢٠١٧م.

٤. . انهيار الشعر الحر . الطبعة الأولى: دار الثقافة . دمشق . ١٩٩٤م . ط٢: دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٣م.

٥. انهيار دعاوى الحداثة ؛ الحداثة ضرورة تاريخيَّة لا خيار سياسي . دار الثقافة . دمشق . ١٩٩٥م.

٦. انهيار قيم المعارضة العربية . دار العالم العربي . عمان . ٢٠١٥م.

٧. انهيار مزاعم العولمة؛ قراءة في تواصل الحضارات وصراعها . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٠م.

٨. انهيار النظام العربي . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.

وثَمَّة غيرها سيصدر متى أتيحت له الفرصة إن شاء الله تعالى.

كتب هٰذا البحث إبان اكتمال تفكك الاتحاد السُّوفيتي ونهايته وهي سنة ١٩٩١م، وكان الاهتمام بالأيديولوجيا إن لم يكن علىٰ أشده فعلىٰ درجة عالية من الاهتمام، ومع ذٰلكَ، وعلىٰ الرَّغْمِ من الكثير من الكتابات ما بَيْنَ كتبٍ وأبحاثٍ ومقالاتٍ في الأيديدلوجيا فلم أجد أبداً من كتب عن هٰذا الموضوع علىٰ نحو مباشر: الأيديولوجيا والعلم، ولا العلاقة التَّأثيرية المتبادلة بمختلف أوجهها السَّلبيَّة والإيجابيَّة. وهٰذا ما حفزني ولقي إعجاب الأستاذ الدكتور **نايف بلوز** فأبدى حماسته له.

من غير الممكن افتراضيًّا أن يكون أوَّل بحث في الموضوع، ولٰكنِّي في حدود علمي حينها وبحثي الطَّويل المعمَّق لم أجد في أيِّ لغةٍ بحثاً لمناقشة العلاقة التأثيريَّة المتبادلة بَيْنَ الأيديولوجيا والعلم والفهم. أقول لم أجد ولا أقول لا يوجد. كانت إمكانات البحث محدودةً وضيِّقةً. ولٰكن مع ذٰلكَ كان الباحث الجاد يستطيع استقصاء نسبةٍ كبيرةٍ من الأبحاث من خلال مفاتيح البحث من المراجع والموسوعات والأبحاث والأساتذة وغير ذٰلكَ تبعاً لبراعة الباحث وقدراته.

وأنا أكتب السُّطور السَّابقة كان في بالي ما وصل إليه الإنترنت من اتساع وتيسير علىٰ الباحثين، فخطر في بالي أن ألقي نظرةً في هٰذه

اللحظة علىٰ الإنترنت بحثاً عن الأيديولوجيا والعلم فوجدت عدداً من العناوين التي تتناول العلم والأيديولوجيا كلها بطبيعة الحال تعود إلىٰ السَّنوات الأخيرة نشراً، أقول بطبيعة الحال لأنَّ الإنترنت يظهر تاريخ النَّشر، والإنترنت لم ينتشر إلا في السَّنوات الأخيرة... وغالب ظنِّي أنَّها أيضاً نشرت في أوقات كتاباتها لأنَّ النشر علىٰ الإنترنت غالباً لا يحتاج إلا إلىٰ ضغطةِ زرٍّ تستغرق بضع ثوانٍ لا تصل إلىٰ الدَّقيقة، ويؤكِّد حقيقةَ حداثة كتابتها ونشرها أسماءُ الباحثين الذين كتبوها... هٰذا من دون الدُّخول إليها لمزيد من التَّحقُّق.

حسناً، أضع هٰذا البحث بَيْنَ أيديكم كما كتبته تماماً قبل أكثر من ربع قرنٍ، لا أغيِّر فيه ولا أبدِّل ولا أزيد فيه ولا منه أُنقص. ليس لإيماني بتمامه أو كماله فلا كمال إلا لله تعالى، ولا بحث إلا ويمكن أن يزاد فيه وينقص منه. وإنما أفعل ذٰلكَ لسببين رئيسين:

أولهما نشر البحث كما هو في نسخته التي كتب بها في وقته، لأنَّ البحث، هٰذا وغيره، وإن كان صالحاً لأكثر من زمان، فإنَّهُ ابن ظرفه ووقته وشروطه التَّاريخيَّة التي ولد فيها، ولا أريد أن أفسد هٰذه اللحظة التي أنتجت هٰذا البحث بأيِّ إضافةٍ أو إنقاصٍ أو تعديلٍ، سيَّان أكانت علىٰ صوابٍ أم حَتَّىٰ علىٰ خطأ.

ثانيهما أنِّي أريد أن أحافظ علىٰ ما كتبته قبل ربع قرب وأكثر كما هو لوضع أفكاري ومواقفي وآرائي وطريقة تفكيري وكتابتي كما كانت في ذٰلكَ الحين لمن يريد أن يتتبع ذٰلكَ أو يقارنه ولنفسي أنا شخصيًّا.

وختاماً من الضَّروري الإشارة أيضاً إلىٰ أن هٰذا الكتاب أعدُّ للنَّشر كما هو الآن ما عدا هذه المقدِّمة منذ عام ٢٠٠٠م، وهممتُ بنشره في ذٰلكَ الحين لولا تقدم أولويات أُخْرىٰ عليه أخرته إلىٰ عام ٢٠٠٧م حين حصلت علىٰ الموافقة علىٰ نشره من وزارة الإعلام بدمشق. ولٰكن أيضاً ظهرت أولويات عليه أخرته إلىٰ أجلٍ غير مسمَّى وإن كان جاهزاً إخراجيًّا للطباعة، حَتَّىٰ هٰذا اليوم الذي تفرَّغت فيه لمخطوطاتي الكثيرة أخرجها للطباعة تباعاً...

تركت الكثير من الأعمال والمشاريع الجديدة حَتَّىٰ أتمكن من نشر ما استطعت من مخطوطاتي، وأسأل الله تعالى أن يعينني علىٰ نشرها جميعاً وما استجدَّ بعدها. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

الفَصْل الأوَّل

ما العلم؟

لعَلَّ كلمة «أيديولوجيا» هي الأكثر ذيوعاً واستخداماً بَيْنَ أوساط المثقَّفين خاصَّةً، ولٰكنَّ الدَّلالة الأكثر شيوعاً وانتشاراً لهذه الكلمة، والتي تعني «الفكرة أو جملة الأفكار التي يعتقدها المرء ويعتنقها، فتتحكم وتوجه فهمه وثقافته وتطلعاته» لا تعدو كونها واحدةً من الدَّلالات التي مرَّت بها هٰذه الكلمة منذ ولادتها وحَتَّىٰ الآن.

وإن كان هٰذا الفهم يلقى تقبل جلِّ الباحثين والمفكرين واستحسانهم، إلا أنَّهُ يثير مشكلاتٍ ومسائل عديدةً، أبرزها في استجلاء أبعاد هٰذه الدَّلالة، وأشدها خطورة في مدى التأثير الأيديولوجي في ضروب العلم والمعرفة.

وهاتان المسألتان هما اللتان سنعنى الآن بالكشف عن مضامينهما محاولةً منا للوقوف علىٰ أهميَّة الدور الذي تمارسه الأيديولوجيا في حياتنا وخطورته، وكيما يتسنى لنا ذٰلكَ لا بُدَّ لنا من المرور ولو سريعاً على أهم الدلالات التي تضمنها المفكرون للأيديولوجيا، ومدى بعد هٰذه الدَّلالات عن المعنى الأصلي الأوَّل الذي قصده واضح هٰذا الاصطلاح. وكذٰلكَ علىٰ دلالات العلم والفهم. نبدأ بالعلم ونثني بالأيديولوجيا ونتابع في أبعاد العلاقة بَيْنَ العلم والأيديولوجيا من مختلف جوانبها.

أولاً: في مفهوم العلم

العلم شأن أيِّ اصطلاحٍ له أصلٌ لغويٌّ وتفريعٌ اصطلاحيٌّ لا يختلف عن الأصل اللغوي إلاَّ في الارتقاء ضبطاً ودقَّة وتحديداً. ولذلك يظلُّ الجذر اللغوي هو الأساس في تحديد المعنى الاصطلاحيِّ لأنَّ هٰذا الأخير ابن الأول وامتداد له بالضَّرورة، إلاَّ فيما شذَّ وندر من الخروج عن الأصل.

العلم في لسان العرب نقيض الجهل. ويقال: عَلِمَ عِلْماً فهو عالم وعليم. هٰذا التَّحديد اللغوي يكاد يتطابق مع التَّحديد الاصطلاحي[1]، وخاصَّةً إذا ما تابعنا **ابن منظور** فيما استشهد به عن **ابن جني** رأى أنَّ المرء لا يوصف بالعلم أَو العالم إلا إذا كان نتيجة طول المزاولة، وإلا فإنَّ المرء يظلُّ متعلماً. ويوضح هٰذا المستوى الدَّلالي لمفردة العلم **أبو البقاء الكفوي** في معجم الاصطلاحات والفروق اللغويَّة إذ يحدُّ العلم بأنه: «معرفة الشَّيء علىٰ ما هو به»[2]. أي معرفة حقيقيَّة، أي ثابتة.

جميل صليبا يعيدنا من جديد إلىٰ المستوى اللغوي، ولٰكن بمزيدٍ من الضَّبط الذي أفاد فيه من التَّطور التَّاريخي والدَّلالي، فقال: «العلم هو الإدراك مطلقاً تصوراً كان أو تصديقاً. يقينيًّا كان أَو غير يقينيٍّ. وقد يطلق علىٰ التَّعقل، أَو علىٰ حصول صورة الشَّيء في الذِّهن»[3]. وينطلق من دون توضيحٍ أَو إشارة إلىٰ البعد الاصطلاحي علىٰ الفور إذ يتابع قائلاً: «أو يطلق علىٰ إدراك الكليِّ

---

١ . ابن منظور: **لسان العرب** . دار إحياء التراث العربي/ مؤسسة التاريخ العربي . بيروت . ط ٣ . ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣م . مادة علم.

٢ . أبو البقاء الكفوي: **الكليات** . وزارة الثقافة . دمشق ج٣ . ١٩٨٢م . مادة علم.

٣ . جميل صليبا: **المعجم الفلسفي** . الشركة العالميَّة للكتاب وآخرون . بيروت . ١٩٨٦م . مادة علم.

مفهوماً كان أَو حكماً، أَو علىٰ الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، أَو علىٰ إدراك الشَّيء علىٰ ما هو به، أَو علىٰ إدراك حقائق الأشياء وعللها، أَو علىٰ إدراك المسائل عن دليل، أَو على الملكة الحاصلة عن إدراك تلك المسائل»[٤].

ملامح المستوى الاصطلاحي للعلم إذن تحدَّدت في أصل الجذر اللغوي من جهة تحديده بكونه إدراك الشَّيء بما هو عليه. وإدراك الشَّيء بما هو عليه هو إدراكه إدراكاً حقيقيًّا، أي إدراك حقيقته إدراكاً صحيحاً. وإذا كان كذلك فإنَّ أوَّل وأهم ما يتَّصف به العلم هو أنَّهُ معرفة ولكنَّهُ تلك المعرفة المتَّصفة باليقينيَّة لأنَّها معرفة بالجواهر والجواهر غير متغيَّرة، خلاف الأعراض التي تتغيَّر وتتبدَّل تبعاً للظَّرف والشَّرط والحال والزَّمان والمكان...

هٰذا الفهم للعلم يضعنا أمام مشكلة عسيرةِ الحلِّ، بل رُبَّما تكون مستعصيةً علىٰ الحل، ورُبَّما تظلُّ مستعصية علىٰ الحل، وهي أنَّ العلم بهٰذا التَّحديد يمكن أن يكون عن طريق الإشراق والإلهام والكشف كما يرى المتصوفة خاصَّةً الذين يرون علمهم يقينيًّا لا يدانيه شكٌّ ولٰكن مع ذٰلكَ لا يمكن لأحدٍ غيرهم إدراك الحقائق التي يدركونها، ولا يمكن التَّوثق من صحَّة ما يعلمون.

يجب أن نميز هنا بَيْنَ اليقين الشَّخصيِّ واليقين العلميِّ، بَيْنَ الحقيقة الشَّخصيَّة والحقيقة العلميَّة. اليقين في الدَّلالة سواء مهما كانت طبيعته؛ إنَّهُ اليقين. وكذلك الحقيقة لا تقلُّ قيمتها مهما كانت طبيعتها؛ إنَّها حقيقة.

إذن نحن لا نعترض هنا علىٰ أنَّ المعرفة المتحصَّلة بالكشف الصُّوفي أَو الحدسي أَو الإيماني هي معرفة يقينية أَو حقيقية أَو ثابتة، ولٰكنَّنا لا

٤ . م. س . ذاته.

نستطيع أن نسمِّي ذٰلكَ علماً بالمعنى الاصطلاحيِّ العام، إنَّهُ علمٌ خاصٌّ له قوانينه الخاصَّة الاستثنائيَّة التي لا تنطبق إلا عليه، ونتائجه غير ملزمةٍ إلا لأصحابه.

هنا نقطة انطلاق تحديد العلم، وهي أنَّ نتائجه ملزمةٌ بالإطلاق، وهٰذا ما يميِّز العلم عن المعرفة عامَّة، فالمعرفة نتائج أَو معلومات غير ملزمةٍ، فالعلم إذن أخصُّ من المعرفة، إنَّهُ جزء منها، ولكنَّهُ أعلىٰ درجات المعرفة وأرقاها. ومعنى ذٰلكَ، وفق **صليبا**، أنَّ «من شرط العلم أن يتضمن درجةً كافيةً من الوحدة والتَّعميم، وأن يكون بحيث يستطيع النَّاس أن يتَّفقوا في الحكم علىٰ مسائله، لا بالاستناد إلىٰ أذواقهم ومصالحهم الفرديَّة، بل بالاستناد إلىٰ ما بَيْنَ هٰذه المسائل من علاقات موضوعيَّة يكشفون عنها بالتَّدريج، ويحقِّقونها ويثبتونها بطرق محدَّدة»[٥].

إنَّ تحديد **صليبا** للعلم بالشَّرط اللازم له تحديدٌ لا يفتقر إلىٰ الصَّواب، ولٰكنَّهُ يفتقر إلىٰ مزيد من الدِّقَّة التي تخرجه من إطار الروح المطَّاطة التي أضفاها علىٰ مفهوم العلم، ومن المؤكَّد أنَّ **كريم متىٰ** اطلع علىٰ ما قدَّمه **صليبا** فحاول تجاوزه في الموسوعة الفلسفيَّة العربيَّة فحدَّد العلم بقوله: «العلم نسقٌ من المعارف التي ترتبط بعضها ببعضٍ ارتباط النَّتائج بالمقدِّمات في الاستدلال السَّليم. ففي العلم إذن نستخلص قضايا كليَّة أَو جزئيَّة معيَّنة من عددٍ قليل من المبادئ والقوانين التي نفترض صدقها أَو نتحقَّق منه»[٦].

---

٥ ـ جميل صليبا: **المعجم الفلسفي** ـ مادة علم.

٦ ـ كريم متى: **مادة علم** ـ ضمن **الموسوعة الفلسفية العربية** ـ المجلد الأول ـ المصطلحات والمفاهيم ـ معهد الإنماء العربي ـ ١٩٨٦م.

لم يستطع **كريم متىٰ** إزالة اللبس من تعريفه إذ ثَمَّةَ الكثير من المعارف «التي ترتبط بعضها ببعضٍ ارتباط النَّتائج بالمقدِّمات في الاستدلال السَّليم»[٧]، ومع ذٰلكَ ليس من الضَّروري أن تكون علماً. ولا يبتعد الشِّق الثَّاني من التَّعريف عن هٰذا الحكم. ورُبَّما لذٰلكَ اضطر إلىٰ التَّعقيب علىٰ تعريفه قائلاً: «المعارف الجزئيَّة التي نجدها في دليل الهاتف والمعاجم وسجِّلات المواليد وجداول حركة القطارات والطَّائرات وكتب الطَّبخ لا تؤلِّف علماً علىٰ الرَّغْمِ مما تتصف به من دقَّةٍ وأهميَّة»[٨].

مشكلة **كريم** هنا هي أنَّهُ لا يميِّز في الدقَّة بَيْنَ المادَّة المعرفيَّة المتضمَّنة التي لا تنتمي إلىٰ العلم في شيء، وبَيْنَ التَّصنيف الذي تقوم عليه هٰذه المعارف وهو العلم الذي يهب العارف دقَّة الانتظام.

هل يعني هٰذا أنَّهُ من المتعذَّر تقديم تحديدٍ دقيقٍ للعلم؟

علىٰ الرَّغْمِ من الإصرار الكليِّ علىٰ أنَّ العلم يتَّصف بالدقَّة التامَّة، بمعنىٰ ما، فإنَّهُ من الصَّعب القول إنَّهُ سيكون الممكن تقديم تعريفٍ أَو تحديدٍ للعلم غير قابلٍ للتَّجاوز أَو النَّقد، ومثل هٰذا ما ينطبق علىٰ تعريفنا التَّالي الذي نحاول فيه تجاوز عثرات التَّعريفات السَّابقة.

العلم، من وجهة نظرنا، هو كلُّ منظومةٍ معرفيَّةٍ تقوم علىٰ الاطراد القانوني المنتظم. أي الذي تكون فيه النَّتائج مبنيَّةً علىٰ قوانين منتظمةٍ دقيقةٍ لا تختلف من مكان إلىٰ آخر، ولا من شخص إلىٰ آخر، ولا من زمان إلىٰ آخر إلاَّ في إطار تضمُّن اللاحق للسَّابقَ. وهٰذا يعني بالضَّرورة أنَّ مادَّة العلم أصلاً قابلة للضَّبط

٧ . م. س . ذاته.

٨ . م. س . ذاته.

الدَّقيق وقابلةٌ لأن تنقسم إلىٰ وحدات متماثلة وللقياس بوحدات القياس أو ما يمكن أن تقاس به من وحدات القياس مثل وحدات المسافة والزَّمن والوزن والكم والوحدات المركبة من وحدتين أو أكثر من الوحدات السابقة وغيرها.

ثانياً: خصائص العلم

تعريفنا السَّابق ينطبق في حقيقة الأمر أكثر ما ينطبق علىٰ العلم الطبيعي ويكاد لا يدخل فيه العلم الاجتماعي وإن كان فيه ما يكفي لتوضيح مفهوم العلم، ولكنَّ كثيراً من المعرفات لا يكتمل وضوحها من دون عرض خصائصها، بل قل لا تنفصل خصائص المعرف عن التَّعريف، فالخصائص جزءٌ من التَّعريف، ويصدق هٰذا علىٰ كثير من المعرَّفات، ومنها العلم، فتعريف العلم يكفي للوقوف علىٰ معناه، ولٰكنَّ الخصائص وإن ظهرت في التَّعريف فإنَّ التَّفصيل فيها ضرورةً في بعض الأحيان، لأنَّها تزيد في التَّحديد والضَّبط وتزيد في التَّوضيح.

كما قد يختلف التَّعريف في مفرداته وأولويَّاته من مُعرِّفٍ إلىٰ آخر، مع ضرورة الحفاظ علىٰ الوحدة المضمونيَّة والدلاليَّة، كذٰلكَ فإنَّ الخصائص يمكن أن تختلف من محدِّدٍ إلى آخر، ولٰكِنَّها يجب ضرورةً أن تكون دالَّة دلالةً صحيحةً وكافيةً. ولذٰلك، وبهٰذا المعنى، فإنَّ ما سنحدِّده من خصائص للعلم ليس إلا تعبيراً عن وجهة نظرٍ يمكن أن يكون هناك غيرها.

أولاً: أولى خصائص العلم أنَّهُ يقوم تأسيساً علىٰ منظومة أوليات تنقسم غالباً إلىٰ قسمين أوَّلهما البداهات التي تتوافق عليها العلوم والمعارف كلُّها، وثانيهما المسلمات أَو المصادرات التي يختص كلُّ علم علىٰ الأقلِّ بمنظومته الخاصَّة من هٰذه المسلمات، وعليهما تنبني القوانين الأوليَّة التي يتمُّ بها برهان الفرضيَّات والوصول إلىٰ النَّتائج المتوخَّاة.

ثانياً: ثاني ما يتميَّز به العلم من خصائص هو أنَّ نتائجه ملزمةٌ للعقول جميعاً بقوَّة الإلزام ذاتها. ويكون ذٰلكَ تامًّا غير مشروطٍ إذا تَمَّ التسليم بنسق المسلمات، أي يفقد الإلزام سلطته إذا تمَّ رفض نسق المسلمات. ولٰكن لا يجوز أن يكون الرَّفض من أجل الرَّفض والعبث، لأنَّ مسلَّمات العلوم عامَّة لها من قوَّة الإلزام ما يفرض علىٰ رافضها تقديم البديل الذي يمكن التَّسليم به بما يمتلكه من تماسك وقوَّة وكفاية، وإلا فإنَّ الرَّفض مرفوضٌ.

ثالثاً: من نتائج الخاصتين السَّابقتين خصيصةٌ جديدةٌ، وهي أنَّ العلم يقوم علىٰ التَّراكميَّة العموديَّة أَو الامتداد الخطِّي المباشر الذي ينبني فيه الجديد علىٰ القديم بالضَّرورة، ولا يمكن للجديد أن يكون من دون أن يكون القديم قد كان.

رابعاً: يلزم عن الخاصَّة السَّابقة خصيصةٌ أُخْرَىٰ بل خصيصتان بالتتالي، أولاهما هي الرابعة ترتيباً أي هٰذه، وهي أنَّ كلَّ لاحقٍ في العلم مبني عَلَىٰ ما سبقه إنجازاً وتعلماً؛ فلا يمكن أن ننجز في العلم جديداً ما لم نهضم أَو نستوعب أَو نفهم ما سبق من قوانين وقواعد ونظريات. ولا يمكن تعلم النَّظريَّة الجديدة أَو رُبَّما فهمها من دون تعلم وفهم ما سبقها من نظريات في العلم ذاته.

خامساً: آخر الخصائص، هنا، وهي نتيجة لازمةٌ عن كلِّ ما سبق، مع ما تتَّسم به من استقلاليَّة في إطار كونها من خصائص العلم، وهي أنَّ ما لا يأتي به هٰذا العالم أَو ذاك من اكتشاف أَو اختراع سيأتي بالضَّرورة من يقوم عوضاً عنه بهٰذا العمل أَو الإنجاز، فلو لم يكتشف **ابن زهر** الدورة الدَّمويَّة لاكتشفها طبيبٌ يأتي من بعده، ولو لم يكتشف **نيوتن** قانون الجاذبية لاكتشفه عالم يأتي بعده، ولو لم يضع **نيلز بور** الفيزياء الكموميَّة لوضعها

غيره... وهكذا في كلِّ المنجزات العلميَّة. قد يتأخَّر الاكتشاف أَو الاختراع وقد لا يتأخر، ولكنَّهُ لا بُدَّ سيأتي لأنَّ سيرورة العلم ستقود إليه بالضَّرورة، وإلا توقف العلم في ميدانه عنده.

هٰذه أبرز خصائص العلم من وجهة نظرنا، ولكِنَّها ليست الوحيدة، وليست نسخةً نهائيَّةً غير قابلةٍ للتَّعديل أَو التَّبديل، علىٰ أنَّهُ من الضَّروري أن نشير إلىٰ أنَّهُ مهما كان ما وصل إليه تنوع الخصائص من اختلاف فإنَّهُ لا بُدَّ من أن يدور في إطار ما سبق الحديث فيه من مفهوم العلم وخصائصه وإلا سنكون أمام أبعاد دلاليَّة أُخْرَىٰ يمكن أن تجعلنا أمام مفهومٍ آخر غير العلم.

ثالثاً: ولادة العلم وتطوره

ثَمَّةَ خلاف كان صغيراً وصار الآن كبيراً، ورُبَّما كبيراً جدًّا، في نشأة الفلسفة والعلم النظري عامَّة. فقد ظلَّ شبه إجماع علىٰ أنَّ العلم النَّظري لم ينشأ بصورته المنظَّمة الواعية إلا في القرن السَّادس قبل الميلاد، في اليونان وتحديداً علىٰ يدي **طاليس الملطي** (٦٤٠ ـ ٥٤٧ ق.م)، ثُمَّ أَتباعه من الطَّبيعيين في المدينة ذاتها. وسرعان ما ثار الخلاف في ذٰلكَ ففي حين ذهب **برتراند رسل** إلى أَنَّه **طاليس**؛ رأى **فيكتور كوزان** (١٧٩٢ ــ ١٨٦٧م) أَنَّه **سقراط**. وقال **سانتهلير** (ت ١٨٩٥م) إنَّها المدارس الثَّلاث المتعاصرة؛ الأيُّونيَّة والأيليَّة والفيثاغوريَّة...»[٩]. ومع اكتشاف الشَّرق القديم، منذ أواسط القرن العشرين، والتَّوسُّع في اكتشاف تراث هٰذا الشَّرق ثار الخلاف من جديدٍ وعلىٰ نحو أكبر وأشد.

٩ . د. توفيق الطَّويل : **أُسس الفلسفة** . دار النَّهضة العربية . القاهرة . ط ٦ / ١٩٧٦ م . ص٣٣.

في أيسر الاحتمالات من المتعذِّر القول إنَّ ولادةَ العلم النَّظري كانت هٰكذا بغتةً من دون سابق مقدِّمات. لا شكَّ في أنَّ هناك إرهاصات طويلة كان الشَّرق صاحب الفضل فيها، ومن المسلمات اليوم أَنَّ بعض فلاسفة اليونان بل معظمهم قد زاروا بلاد الشَّرق واطَّلعوا علىٰ حضاراتها وعلومها، واستفادوا منها كثيراً في صياغة أَفكارهم وضبطها وتحديدها على نحوٍ متميِّز. ناهيك عن أنَّ كثيراً منهم بل من أشهرهم كان سوري الأصل.

«ومن دلالات سبق الشَّرق للغرب في مجالات التَّفكير النَّظري، ما خلَّفه لنا قدماء الشَّرقيين من وجوه النَّظر العقلي في الأُلوهيَّة والبعث والخير والشَّر والمبدأ والمصير ... وغير هٰذا من مجالات توصَّلوا بصددها إلى آراء تردَّد صداها بعد ذٰلكَ عند القدامى من فلاسفة اليونان»[١٠] وليس هٰذا فحسب بل إنَّ كثيراً من العلوم التي نسمِّيها تجريبيَّة قد عُرِفَت لدى شعوب الشَّرق القديم، علىٰ تباعد مساكنه، وتباين مشاربه؛ كالطِّب والهندسة والحساب والفلك والكيمياء... بدءً من الهند إلىٰ فارس فالرافدين والسَّاحل السُّوري ووادي النِّيل... هٰذه الحضارات التي ما تزال آثارها ماثلةً أمام أعيننا وإدراكاتنا أَنصع دليلٍ علىٰ ذٰلكَ.

مع انتقال العلوم والعقائد إلىٰ اليونان انتظمت في الفكر اليوناني انتظاماً جديداً كانت الفلسفة حامله ومحوره، ومع ذٰلكَ كان ثَمَّةَ شيءٌ من التَّمايز بَيْنَ العالم والفيلسوف، ولكنَّهُ ظلَّ غير ظاهرٍ. وظلَّ الأمر كذٰلكَ حَتَّىٰ عادت العلوم إلىٰ الحاضنة العربيَّة التي بدأت فيها العلوم بالانفصال عن الفلسفة، فعرفنا لأول

١٠ . د. توفيق الطَّويل : **أُسس الفلسفة** . ص ٣٦.

مرَّةٍ في تاريخ الفكر البشري علماء يخوضون أبحاثهم وعلومهم باستقلاليَّة عن الفلسفة وعن الدين مثل **البوزجاني** (ت ٣٨٧هـ/٩٩٨ م) **وأَولاد موسى بن شاكر: (محمد . أحمد . الحسن)**، و**ثابت بن قرَّة** (ت ٢٨٨ هـ/٩٠٠م)، و**جابر بن حيَّان** (ت ١٩٤هـ/٨١٣ م) **وبديع الزَّمان الجزري** (ت ٥٢٩ هـ / ١١٣٤م)، و**أُميَّة بن أَبي الصَّلت** (ت ٥١٢هـ/١١٣٤ م)... وغيرهم. بل حَتَّى العلماء الفلاسفة أمثال **ابن الهيثم، وابن سينا، والبيروني، والرازي** وغيرهم عرفوا الحالة العلميَّة المستقلَّة فأنجزوا المبتكرات المهمَّة والخطيرة في تاريخ من العلم.

ليس هٰذا موضع تبيان إنجازات الحضارة العربيَّة في العلم وولادة العلم الحديث[١١]. ولا السَّرقات التي العلميَّة التي نحلها الأوربيون لأنفسهم والتي راحت تتكشف رويداً رويداً حَتَّى باتت جدَّ معروفة عند المتابعين علىٰ الأقل. وهٰذا ما أَقرَّ به عددٌ كبيرٌ من مفكري الغرب المشهود لهم أَمثال **جاستون باشلار، وجورج سارتون، ومونتجمري واط، ولويس ماسينيون، وشارل ساندرز بيرس، وموريس جيجر، وكلود كاهن، ويوجين مايرز، وجون هرمان راندال، وتوماس كون، وإدوار جي براون، وج. برنوفسكي، وج.د. برنال، ورودنسون، وماكس مايرهوف، وكاجوري، ونللينو** وغيرهم كثيرون. وهٰذا **جورج سارتون** (ت ١٩٥٦م) يعلن أنَّ جلُّ ما صنعه علماء عصر النَّهضة الأوروبيَّة هو ترجمة واجترار الآثار السَّابقة، ولا سيَّما العربيَّة الإسلاميَّة التي

١١ . ناقشنا المزيد من التفاصيل في أثر العرب ولادة العلم ونشأة العلم الحديث والعلوم الاجتماعية وإنجازات الحضارة العربية في هذه الميادين انظر كتابنا: **دفاع عن الفلسفة** . مخطوط يصدر قريباً. (صدر عام ١٩٩٤)

يُغفِلون أَحياناً كثيرة أَسماء أَصحابها[١٢]، بل إنَّ بعضهم كان ينسب إلىٰ نفسه ما كان يترجمه[١٣]... والأمثلة علىٰ ذٰلكَ أكثر من أن تحصى.

الذي يعنينا هنا وباختصارٍ هو أنَّ نشأة العلم الحديث واستقلاله عن الفلسفة علىٰ أيدي الفلاسفة والعلماء الأوربيين لم تكن في حقيقتها سوىٰ إعادة إنتاج ما توصَّل إليه علماء المسلمين إمَّا بالطَّريقة ذاتها أو بطريقة جديدة. وفي هٰذا حديث طويلٌ كثير التَّفاصيل يمكن الرُّجوع إليها لمن أراد متابعتها[١٤].

رابعاً: تصنيف العلوم

عرف تاريخ العلم العديد من تصنيفات العلوم، وقد توافقت التَّصنيفات في أشياء وتخالفت في أشياء، وكان منها من المتوافقات ما يكاد يكون متشابهاً تماماً، وكان منها من المتخالفات ما تتباعد به إلىٰ حدٍّ كبير.

رُبَّما كان **أرسطو** أوَّل من صنَّف العلوم، فقسَّمها إلىٰ ثلاثة أَقسام هي: «العلوم النَّظرية والعلوم العمليَّة والعلوم الشِّعرية، وكلٌّ منها ينفرعُ إلىٰ مباحث عدَّة. أَمَّا المنطق الذي لم يدرجه **أَرسطو** ضمن أَيٍّ من هٰذه الأقسام فقد عدَّه وسيلة أَو أَداة في خدمة العلوم»[١٥].

وعلىٰ نحوٍ مشابهٍ صنَّف **ابن سينا** العلوم الفلسفيَّة، فقسَّمها إلىٰ علومٍ عرضيةٍ كالطِّبِّ والزِّراعة، وعلوم أَصليةٍ هي العلوم الفلسفيَّة وهٰذه العلوم قد تكون

---

١٢ . انظر ذلك عند توفيق الطويل: **أسس الفلسفة** . ص١٨٦.

١٣ . لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع يمكن مراجعة الكتب التي تتحدث عن فضل الحضارة العربية الإسلامية ودورها في العلوم وهي كتب كثيرة جداً يضيق المجال عن حصرها.

١٤ . فصَّلنا في ذٰلكَ في كتابنا: **دفاع عن الفلسفة** . مخطوط يصدر قريباً. (صدر عام ١٩٩٤).

١٥ . د. *غسان فينيانس* (*بالاشتراك*) : **تاريخ الفلسفة القديمة والوسيطة** . المطبعة الجديدة . دمشق . ١٩٨١ . ص ٥٦ / ٥٧.

عمليَّة وقد تكون نظريَّة؛ النَّظريَّة هدفها الخير العام، وتنقسم بدورها إلىٰ ثلاثة أَقسام هي: «الفلسفة السِّياسية والفلسفة والمنزليَّة والفلسفة الأخلاقيَّة. أمَّا النَّظريَّةً؛ فهدفها معرفة الحقيقة، وتنقسم بدورها أَيضاً إلىٰ ثلاثة أَقسام: أَدناها العلوم الطَّبيعيَّة؛ وموضوعها الموجودات المختلطة مع المادَّة في الواقع والتَّصور، ثمَّ الرِّياضيَّات؛ وموضوعها الموجودات المختلطة مع المادَّة في الواقع والمنفصلة عنها في التَّصور، وأَرقاها علوم ما بعد الطَّبيعة؛ وموضوعها الموجودات المنفصلة عن المادَّة في الواقع وفي التَّصور، وهٰذا القسم الأخير يطلق علىٰ ثلاثة أَنواع هي: الميتافيزياء، والعلم الكلِّي، والعلم الإلهي، ولكلٍّ منها خصوصيَّته ومجاله»[١٦].

وعلىٰ الوتيرة ذاتها تقريباً سار القديس **توما الأَكويني** الذي قسَّم العلوم الفلسفية إلىٰ أَربعة أَقسام هي: **العلوم الطبيعيَّة**: وموضوعها الأشياء التي يقتصر دَوْرُ العقل فيها علىٰ معرفتها من دون صنعها، وهي الميتافيزياء والرِّياضيات. **والفلسفة العقليَّة**: وموضوعها ما يصنعه العقل ضمن نشاطه الخاص، وهي المنطق. **والفلسفة الأَخلاقيَّة**: وموضوعها ما يصنعه العقل ضمن أَفعال الإرادة. **والعلوم التِّقنيَّة**: وموضوعها ما يصنعه العقل في الأَشياء[١٧].

لم يتوقف تصنيف العلوم هنا فقد تتالىٰ الفلاسفة والمفكرون في اقتراح تصنيفاتٍ جديدةٍ للعلوم، فكان منهم **ابن خلدون وبيكون وآمبر وديكارت**

---

١٦ . انظر في ذلك :

ابن سينا : **منطق المشرقيين** . ص ٥ /٨ .

ابن سينا : **الشِّفاء** ؛ **قسم المنطق** (المقالة الأُولى) . ف٢ . ص ٢ / ١٥.

١٧ . انظر في ذلك :

Roger Veerneaux : Introdution Générale et Logique . Paris . 1968 . p. 18,19 .

وأوجست كونت وكيدروف وغيرهم غير قليل. سنترك كلَّ هٰذه التَّصنيفات ونقف فَقَطْ عند خلاصتها.

نحن في حقيقة الأمر أمام تصنيفين كلٌّ منهما يتضمَّن الآخر ويقوم عليه. أوَّلهما التَّصنيف التَّراتبي أَو الهرمي للعلوم والذي يمكن إرجاعه بحقٍّ إلىٰ الفيلسوف الاجتماعي **أوجست كونت**. وثاني التَّصنيفين ينبني في المبدأ علىٰ هٰذا التَّصنيف إلىٰ حدٍّ كبير، ولكنَّهُ يبدأ بتقسيم العلوم إلىٰ مجموعات كبرىٰ، وكل مجموعة لها تسلسل علومها.

يقوم تصنيف **أوجست كونت** علىٰ أربعة مبادئ **أولها** مبدأ ازدياد التَّعقيد وتناقض التعميم، **وثانيها** مبدأ التعلق والاستقلال النسبيان، **وثالثها** مبدأ النُّشوء التَّاريخي، **ورابعها** مبدأ التعليم. وعلىٰ أساس هٰذه المبادئ كان تصنيف **كونت** التَّراتبي الهرمي الذي بدأ بأكثر العلوم تعقيداً وتعميماً وانتهى إلىٰ أبعدها عن ذٰلكَ، فكانت لدينا وفقه ستة علومٍ أولها الرِّياضيَّات، وثانيها الفلك، وثالثها الفيزياء، ورابعها الكيمياء، وخامسها علم الحياة، وسادسها علم الاجتماع.

هٰذا التَّصنيف الذي أفرز ست علوم تصدق علىٰ عصر **كونت** يظلُّ صحيحاً في مبدئه، ويقبل التَّطوير والتَّعميم بناء عليها لينطبق علىٰ ما وصل إليه العلم من تطوُّرٍ ومعطياتٍ جديدةٍ.

سنبني علىٰ المبادئ التي وضعها **كونت** بعد تطويرها نوعاً ما، ونصل من خلال ذٰلكَ إلىٰ التَّصنيف الجديد الذي هو إلىٰ حدٍّ كبير خلاصة ما نراه مصيباً من وجهات النَّظر التَّصنيفيَّة المعاصرة.

المبدأ الذي سيقوم عليه تصنيفنا هو العموميَّة والشُّمول. أشد العلوم شمولاً وتعميماً سيكون علىٰ رأس الهرم، ويليه الذي هو أقل منه عموميَّة وشمولاً، وهٰكذا.

الذي يتصل بهٰذا المبدأ ولا ينفصل عنه هو أنَّهُ كلَّما انفصل العلم عن المادَّة أكثر كان أشدَّ تعميماً وشمولاً، وكلَّما اختلط بالمادَّة أكثر كان أكثر ابتعاداً عن رأس الهرم وأقلَّ تعميماً وشمولاً. هٰذا يعني أنَّهُ كلما كانت المادَّة أكثر مرونة وسيولةٌ كان العلم الخاص بها أبعد عن رأس الهرم أكثر، وعندما تنضاف إلىٰ المادَّة الحياةُ سيبتعد العلم أكثر عن رأس الهرم، وكلَّما كانت الحياة أكثر تعقيداً كان ذٰلكَ أدعى إلىٰ بعد العلم عن رأس الهرم أكثر. وهٰكذا سنجد أنفسنا أمام تسلسل متتابع تتالىٰ فيه العلوم تبعاً لهٰذه المبادئ التي لزمت عن بعضها بعضاً. وإذا كنَّا سنقسم العلوم إلىٰ ثلاثة مستويات فإنَّ ذٰلكَ لا يغير في التَّراتبيَّة شيئاً، لأنَّ هٰذه المستويات متتالية تتالياً هرميًّا تتحقق فيها المعادلة التي صنفَّنا العلوم علىٰ أساسها. يلي هٰذه المستويات الثلاثة مستوً رابعٌ الجديد فيه هو العلوم التُّخوميَّة بنوعٍ من التَّكامليَّة التي يصعب تجاوزها أَو التنكر لوجودها، ولٰكِنَّها في الوقت ذاته ليست بالعلوم الجديدة.

هٰذه صورةٌ أوليَّةٌ لتصنيفنا العلومَ سنتوسع بها لاحقاً، والذي دعا إلىٰ التَّصنيف وفق هٰذه المستويات الثَّلاثة هو أنَّ هٰذه المستويات هي في حقيقة الأمر فئاٌت متباينةٌ من أنواع العلوم لتشمل مختلف العلوم الطَّبيعية والاجتماعيَّة والتَّخوميَّة وحَتَّىٰ ما يحتمل ولادته من علوم جديدة أو عدِّه علماً بَيْنَ العلوم.

خاتمة

وإن بدا أنَّنا أطلنا إلا أنَّ هٰذه الإطالة مهمَّةٌ وضروريَّةٌ لتوضيح مفهوم العلم وعلاقته بالأيديولوجيا من خلال الأوجه المختلفة التي سنتحدَّث عنها فيما سيأتي من فقراتٍ تاليةٍ.

عندما نتحدَّث عن أثر الأيديولوجيا في العلم أو أثر العلم أو أي نوع من العلاقة بَيْنَ العلم والأيديولوجيا وفق ما سيأتي فإنَّنا نقصد العلم بمختلف معانية ومستوياته ودرجاته ولا نعني به العلم الاجتماعي وحده كما يريد المتكلمون في أثر الأيديولوجيا في العلم. أثر الأيديولوجيا في العلم يمتدُّ إلىٰ العلم الطَّبيعي الذي يخال الكلُّ أو الأكثرون أنَّهُ فوق الأيديولوجيا ولا يمكن أن يتأثَّر بها أو يخضع لتأثيرها.

الحقيقة أنَّ الكثيرين جدًّا جدًّا عندما يتحدَّثون عن أثر الأيديولوجيا في العلم فإنَّمَا يقصدون أثرها في العلوم الاجتماعيَّة وحسب، كونها مفتوحةٌ علىٰ الفهم والتَّأويل وتعارض الآراء والمواقف وتناقضها... ويتحاشون غالباً إدراج العلوم الطبيعيَّة ضمن مدىٰ التأثُّر والتَّأثير كونها قانونيَّة مقوننة غير خاضعةٍ لأثر الذَّات وفاعليتها... وهٰذا في نظرنا[١٨] وهمٌ لا أساسَ له من الصِّحة. وهٰذا ما سنبينه فيما سيأتي من فقرات.

١٨ . في عام ١٩٩٠م ذهبت ببحث إلى أستاذنا الدكتور عبد الكريم اليافي رحمه لنشره في مجلة التراث العربي التي كان يرأس تحريرها، ونشره في عدد أول عام ١٩٩١م. كنت أقول: أرى، وفي نظري... فنصحني أن أستعيض عنها بضمير الجماعة، فالتزمت ذلك ردحاً من الزمن.

برت السيد أحمد
الأيديولوجيا والعلم

الفصل الثاني

ما الأيروجيا؟

نكرر هنا ثانيةً؛ لعَلَّ كلمة «أيديولوجيا» هي الأكثر ذيوعاً واستخداماً بَيْنَ أوساط المثقَّفين خاصَّةً، ولٰكنَّ الدَّلالة الأكثر شيوعاً وانتشاراً لهذه الكلمة، والتي تعني «الفكرة أو جملة الأفكار التي يعتقدها المرء ويعتنقها، فتتحكم وتوجه فهمه وثقافته وتطلعاته» لا تعدو كونها واحدةً من الدَّلالات التي مرَّت بها هٰذه الكلمة منذ ولادتها وحَتَّىٰ الآن.

وإن كان هٰذا الفهم يلقى تقبُّل جلِّ الباحثين والمفكِّرين واستحسانهم، إلا أنَّهُ يثير مشكلاتٍ ومسائلَ عديدةً، أبرزها في استجلاء أبعاد هٰذه الدَّلالة، وأشدُّها خطورةً في مدىٰ التَّأثير الأيديولوجي في ضروب العلم والمعرفة.

وهاتان المسألتان هما اللتان سنعنىٰ الآن في الكشف عن مضامينهما محاولةً منا للوقوف علىٰ أهميَّة الدَّور الذي تمارسه الأيديولوجيا في حياتنا وخطورته، وكيما يتسنى لنا ذٰلكَ لا بُدَّ لنا من المرور ولو سريعاً علىٰ أهمِّ الدَّلالات التي ضمَّنها المفكرون للأيديولوجيا، ومدىٰ بعد هٰذه الدَّلالات عن المعنىٰ الأصلي الأول الذي قصده واضح هٰذا الاصطلاح. وكذٰلكَ علىٰ دلالات العلم والفهم. بدأنا بالعلم في الفقرة السَّابقة ونثنِّي الآن بالأيديولوجيا ونختم بالفهم في إطار تحديد المفاهيم.

لا شكَّ في أنَّنا مدينون للماركسَّية بالجانب الأهم من الفهم المعاصر لمصطلح الأيديولوجيا، لكثرة ما أطنب الماركسيون في الحديث عن الأيديولوجيا والأثر الذي تتركه في مختلف ضروب النَّشاط والوعي، حَتَّىٰ كان للماركسيَّة الحظ الأوفر في تحديد المعنىٰ الشَّائع لهذا «المصطلح، الأمر الذي جعل النَّاس معظمهم يجنحون إلىٰ الاعتقاد بأنَّ المصطلح أيديولوجيا يتَّصل «اتِّصالاً وثيقاً بالماركسيَّة، ولهٰذا السَّبب نجد أنَّ ـ ردودهم ـ واستجاباتهم عن هٰذا الاصطلاح مقرَّرةٌ سلفاً علىٰ الأكثريَّة بتلك الصِّلة، مع العلم أنَّ هٰذا الاصطلاح سابقٌ عَلىٰ الماركسيَّة»[١٩].

يعني هٰذا المصطلح في أصله اللاتيني «علم الأفكار» فهو مركب من لفظتين هما «ideo= فكرة» و«logos=علم» وقد «ظهر مصطلح الأيديولوجيا للمرَّة الأولىٰ علىٰ قلم الفيلسوف الفرنسيِّ **دستوت دوتراسي** ـ ١٧٥٤م ـ ١٨٣٦م وذٰلكَ في كتابٍ له بعنوان (مذكَّرة حول ملكة التَّفكير) ثُمَّ توسَّع في شرح هٰذا المصطلح ضمن كتاب آخر عنوانه (تخطيط لعناصر الأيديولوجيا)، وقد عرف هٰذا الكتاب الأخير أفكار، أي مجمل واقعات الوعي من حيث صفائها وقوانينها وعلاقاتها بالعلائم التي تمثلها، ولاسيما أصلها»[٢٠].

والحق أنَّ هٰذا التَّحديد الذي أطره **دوتراسي** للأيديولوجيا قد ظلَّ الموئل الذي يمتح المفكرون منه نسغ تعريفاتهم وتأطيراتها. وأيًّا كان التَّباين والاختلاف في فهم (الأيديولوجيا) يمكن ردُّه إلىٰ هٰذا التَّعريف الذي لا يمكن لنا إلا أن

---

١٩ ـ كارل ماغايم: **الأيديولوجيا والطوباوية** ـ ترجمة عبد الجليل ضاهر ـ بغداد ـ ١٩٦٨م ـ ص ١٢٦.

٢٠ ـ رشيد مسعود: **ملاحظات حول الفهم الفلسفي للأيديولوجيا** ـ مجلة الفكر العربي العدد ـ ١٥ ـ ١٩٨٠م ـ ص ٥٥.

نفهمه علىٰ أنَّهُ، لا علم الأفكار بالمعنى «الابيستمولوجي ـ علم العِلم» ولا بالمعنى «الغنوسولوجي ـ علم المعرفة»، بل علىٰ أنَّهَا الأفكار ذاتها التي تهيمن علىٰ الباحث أو المفكر وتقود وعيه وفهمه لما هو قائم من أفكارٍ وقيمٍ ومفاهيم علىٰ نحوٍ يعزِّز العقائد التي يعتنقها، وتحفزه علىٰ استيلاد الأفكار والقيم الجديدة التي تدعم عقائده، أو ما يمكن أن نسميه الفكر القابع خلف الفكر، أو جملة الأفكار القبليَّة التي نعتقها وتقود فمهمنا وتفسيراتنا لظواهر الطبيعة والمجتمع، علىٰ نحوٍ شعوريٍّ أو لا شعوريٍّ.

ويتَّضح هٰذا المعنى علىٰ لسان **دوتراسي** ذاته إذ يقول: «ثَمَّة علمان ليسا مختلفين فحسب، بل متعارضين، يبالغ النَّاس في الإصرار علىٰ الخلط بَيْنَهُما، أعني الميتافيزيقا اللاهوتيَّة القديمة، أو الميتافيزيقا بالمعنى الحقيقي للكلمة، والميتافيزيقا الفلسفيَّة الحديثة، أو الأيديولوجيا[٢١] لتبدو الأيديولوجيا وكأنَّهَا الأفكار التي تقف وراء كلِّ فلسفةٍ. ويعزِّز **دوتراسي** هٰذا الفهم إذ يبيِّن «أنَّ علمه المقترح يمكن أن يوصف بأنَّهُ أيديولوجيا إذا نظرنا إلىٰ محتواه، ونحواً عامًّا إذا نظرنا إلىٰ وسيلته، ومنطقاً إذا نظرنا إلىٰ هدفه»[٢٢].

وعلىٰ رغم ذٰلكَ فإنَّنا لا نستطيع أن ننكر البتة أنَّ **دوتراسي** كان يقصد أن يؤسِّس لعلمٍ جديدٍ بأصل الأفكار وصفاتها وقوانينها وعلاقاتها، ولٰكنَّ المشكلة هنا هي أنَّ ثَمَّة علماً خاصًّا بالمعرفة، هو ما يمكن أن نسميه علم المعرفة (الغنوسولوجيا) هٰذا العلم الذي يُعنى بأصل المعرفة ونشأتها وطبيعتها

٢١ ـ رشيد مسعود: **مادة الأيديولوجيا** ـ ضمن **الموسوعة الفلسفية العربية** ـ المجلد الأول ـ المصطلحات والمفاهيم ـ معهد الإنماء العربي ـ ١٩٨٦م ـ ص ١٥٩.

٢٢ ـ عبد الله العروي: **مفهوم الأيديولوجيا** ـ دار الفارابي ـ المركز الثقافي العربي/الدار البيضاء ـ ١٩٨٠م ـ ص ٢٣.

وحقائقها... ونظراً لوثيق الصِّلة وتلازمها غير المنفك بَيْنَ الفكر والمعرفة، فقد بات لزاماً علىٰ علم الأفكار كيما يكون أصيلاً فعلاً ألاَّ يكون صورةً مطابقةً، أو نسخةً ثانيةً عن علم المعرفة، ولذٰلك كان عليه أن يتَّخذ منحًى آخر مميَّزاً، وأن يبحث عن حقلٍ جديدٍ لممارسته، ولهٰذا ما كان فعلاً، إذ «اندفع علم الأفكار نحو البحث عن ـ أصل الفكر غير المطابق للواقع ـ وبدأ بتسليط الأضواء علىٰ تأثير التَّقاليد والمعتقدات والأفكار الموروثة، في صرف النَّظر عن استقامةٍ مفترضةٍ لمساره الطبيعي»[٢٣].

وكان من الممكن أن تظلَّ الأيديولوجيا علماً للفكر، لولا أنَّ المفكرين والباحثين سرعان ما تلقفوا تعريف هٰذا العلم من دون غايته ـ لأنَّهَا كانت بالنسبة لهم بحكم تحصيل الحاصل ـ ليحولوه كما هو دونما تغييرٍ إلىٰ مفهومٍ يدلُّ علىٰ ظاهرةٍ معيَّنةٍ بذاتها، وإن اختلفت تفاسيرها ومضامينها تبعاً للنَّاظرين إليها، وقصروا معنىٰ الأيديولوجيا عليها، لتتجرَّد بذٰلكَ من كونها علماً، ووراء هٰذا الاختلاف بحدِّ ذاته يكمن جوهر الأيديولوجيا بالمعنىٰ الخاص، أو بالمعنىٰ الاصطلاحي المعاصر والشَّائع، «ونذكر المعنىٰ الخاصَّ لمفهوم الأيديولوجيا عندما يشير الاصطلاح إلىٰ ما يغمر قلوبنا من شكوكٍ وريبٍ، وما يعتور نفوسنا من تردُّدٍ عن الآراء والأفكار والتَّصورات التي يتقدَّم بها المعارضون لنا، تعتبر تلك الآراء والأفكار والتَّصوُّرات التي يتقدَّم بها المعارضون لنا، تعتبر تلك الآراء والتَّصوُّرات أقنعةً شعوريَّةً واعيةً تحجب الطَّبيعة الحقيقيَّة للوضعيَّة الاجتماعيَّة، لأنَّ المعرفة الحقيقيَّة بتلك الوضعيَّة لا تتَّفق مع مصالح المعارضين»[٢٤].

---

٢٣ ـ م. س ـ ذاته.

٢٤ ـ كارل مانهايم ـ **الأيديولوجيا والطوباوية** ـ ص ١٢٦.

وبهٰذا المعنىٰ كانت الأيديولوجيا عند **ريمون آرون** هي فكرة الخصم، وعند **ماركس** ـ ١٨١٨ ـ ١٨٨٣ قناعاً يخفي تقدُّم التَّاريخ، وعند **نيتشه** ـ ١٩٠٠م ستاراً يبعد عن الحياة[٢٥] وعند **كارل مانهايم** هي «تلك التَّفسيرات للوضع التي ليست تجارب مجسَّدة، ولٰكنَّهَا نوع من المعرفة المحرفة لهٰذه التَّجارب، تفيد إخفاء الوضع الحقيقي»[٢٦].

ومع **كارل يسبرز** ـ ١٨٨٣م ـ ١٩٦٩م نقترب من الموضوعيَّة أكثر فأكثر، فلم تعد الأيديولوجيا فكرة الخصم، وإنَّمَا هي «تركيبة من الأفكار أو التمثلات تبدو في نظر الذَّات تفسيراً للعالم أو لوضعها الخاص، يمثل لها الحقيقة المطلقة، ولكن علىٰ شكل وهم»[٢٧] وبالتَّالي فليس ثَمَّةَ ذات خلو من هٰذه التَّمثلات والأفكار، وهٰكذا نصل إلىٰ المفهوم الذي حدَّدناه مسبقاً للأيديولوجيا بقولنا: هي الفكرة أو جملة الأفكار التي يعتقدها المرء ويعتنقها، فتتحكَّم في فهمه وتوجِّه فهمه وثقافته وتطلعاته علىٰ النَّحو الذي يؤكِّد ويعزِّز الأفكار التي اتخذها معتقداً. وعلىٰ هٰذا النَّحو فليس ثَمَّة إنسان خلوٌ من الأيديولوجيا، فلكل إنسانٍ أيديولوجيَّته الخاصة، كما أنَّ لكلِّ امرئٍ فلسفته الخاصَّة، بل إنَّ الأيديولوجيا هي الفلسفة عندما تتحول إلىٰ وعيٍ ينهد لتأكيد محتواه وتبريره للذات أولاً وللآخرين ثانياً.

---

٢٥ ـ عبد الله العروي ـ **مفهوم الأيديولوجيا** ـ ص ٣٩.

٢٦ ـ ميشيل فادية: **الأيديولوجيا؛ وثائق من الأصول الفلسفية** ـ ترجمة أمينة رشيد وسيد البحراوي ـ دار التنوير ـ بيروت ـ ١٩٨٢م ـ ص٢٢.

٢٧ ـ م. س ـ ص ٢٣.

هٰـذه النُّقطـة أو المسـألة الأخـيرة الـتي انتهينـا إليهـا في تحديـد مفهـوم الأيديولوجيا تثير أكثر من مسألة وتفتح أمامنا أكثر من أفق لفهم طبيعة العلاقة بَيْنَ الأيديولوجيا والعلم والفهم وطبيعة التأثير وآليته.

المسألة الأولىٰ هي قولنا بأنَّ كلَّ إنسانٍ ينطوي علىٰ أيديولوجيا، كلُّ ذات هي ذاتٌ أيديولوجيَّةٌ بطبيعتها وبنيتها وتركيبتها.

هٰـذا الكـلام يتنـاقض فيمـا يبـدو مـع افـترض الأكثـرين أنَّ الأيـديولوجيا لا تكون، بمعنىٰ من المعاني، إلا عند المثقَّف أو السياسي رُبَّما بمعنى أكثر تحديداً. ويطلقـون علـىٰ هٰـذا الشَّـخص تسـميات عـدة كـالمثقف العضـوي، أو المثقـف المنتمي، أو غير ذٰلكَ.

ويتناقض هٰذا أيضاً مع الاعتقاد بأنَّ الأيديولوجيا هي بنية سياسيَّة للحزب أو الحركـة. أي حـزب أو حركـة سياسـيَّة هـو أو هـي نشـاط مبـني علـىٰ أسـاس أيديولوجي، أي علىٰ عقيدة، أي علىٰ أيديولوجيا...

لن نطيل في إيضاح تفاصيل هٰذا اللبس الذي ستتضح بطبيعة الحال فيما سيأتي من فقرات تزيد كشف اللثام والغموض عن هٰذه العلاقة بَيْنَ الأيديولوجيا والشَّخص الفرد والشَّخص العضوي والحزب والحركة وهلم جرًّا.

الأمر المهم الذي نودُّ إيضاحه هنا هو تأكيد أنَّ الأيديولوجيا بما هي فكرٌ أو فكـرةٌ أو أفكـارٌ مسـبَّقةٌ علـىٰ التَّفكـير وينبـني التَّفكـير في أي موضـوع عليهـا موجودةٌ عند كلِّ شخصٍ بالمطلق من دون تحديد هويَّته أو عقيدته حَتَّىٰ لأجزم بأنَّهَا موجودة عند أكثر النَّاس بساطة وسطحيَّة.

نتحدَّث عن الأيديولوجيا بوصفها فكرةٌ أو قناعةٌ، ولنصل إلىٰ أنَّها قناعة تتألَّف من مجموع مبادئ العقيدة التي يتبناها الشَّخص أيًّا كانت طبيعتها دينيَّة

أو سياسيَّة أو اجتماعيَّة أو خليط من ذٰلكَ كله جميعاً. وهٰذا الفهم لمعنىٰ الأيديولوجيا نابع من أساس نشأتها وحراكها وفاعليتها ومن معناها ذاته وليس من خارجها بحالٍ من الأحوال. وهٰذا هو المعنىٰ الوحيد الذي يحفظ للأيديولوجيا قيمتها ومكانتها وقدرتها علىٰ الفعل والتأثير... ويحفظ لها قدرها وقيمتها العلميَّة أيضاً. أما تحويل الأيديولوجيا إلىٰ دوغما سياسيَّة، إلىٰ عقيدة حزب أو حركة سياسيَّة، أو رُبَّما حصرها بالتَّيَّار المقابل أو الخصم وحسب كما فعل الماركسيون فهٰذا ابتذال بالعموم وتجريد للأيديولوجيا من قيمتها الحقيقيَّة وتحويلها إلىٰ غوغائيَّة الأعداء.

بهٰذا المعنى الذي أراده الماركسيون للإمبرياليَّة والحركات الرجعيَّة علىٰ حدِّ تعبيرهم نتساءل: بماذا خرجوا عن المفهوم السيء المقيت للأيديولوجيا الذي ألبسوه لخصومهم؟

إنَّ ما نشهده من ممارسات في الأنظمة الاشتراكيَّة أي الماركسيَّة بمعنىٰ من المعاني هو الممارسة الغوغائيَّة الصَّرف والتعتيم علىٰ الحقائق التي لا تنسجم معهم علىٰ الرَّغْمِ من كونها حقائق. لا أريد الإطالة في الشَّواهد الغوغائيَّة التي تمارسها الأنظمة الاشتراكيَّة من تعتيم وتجهيل وغير ذٰلك بدوافع أيديولوجيَّة فهي أكثر من أن تحصى، ولا تصل النُّظم الإمبرياليَّة في هٰذا الشَّأن إلىٰ واحد بالمئة مما تفعله هٰذه الأنظمة علىٰ شعوبها في أقلِّ تقديرٍ.

لاحظ أنَّ ما تمارسه هٰذه الأنظمة تمارسه علىٰ شعوبها بما يعني في تصوُّرنا أنَّ الأمر يتعدَّىٰ التَّأثير الأيديولوجي إلىٰ التَّضليل المقصود، تضليل من يعرف الحقيقة ويتستر عليها ويخفيها ويقدِّم للجمهور معلوماتٍ ضالةً خاطئةً كاذبةً. هٰذه الممارسة تتعدَّىٰ الفاعليَّة الأيديولوجيا وتدخل في باب آخر صورته أنَّهُ يتم

تحت الفاعليَّة الأيديولوجيَّة ولٰكِنَّهُ ليس كذٰلك في حقيقة الأمر. الفاعليَّة الأيديولوجيَّة تقوم علىٰ أساس السَّيطرة علىٰ نمط التَّفكير ومنهجه وتدفعه للفهم بطريقةٍ معيَّنةٍ تتناسب مع العقيدة التي يحملها لتعزيزها أو الدِّفاع عنها أي تحت أيِّ سببٍ آخر يندرج في هٰذا الإطار. فيما التَّضليل المبني علىٰ معرفةٍ بالحقيقة ثمَّ تشويهها أو تحريفها أو تغييرها فهٰذا تزوير عن عمدٍ لأغراضٍ وإن كانت الأيديولوجيا وراءها إلا أنَّها لا علاقة لها بالتَّفكير ومناهجه... إنَّهَا عدوانٌ علىٰ الحقيقة. ولا يعتدي علىٰ الحقيقة علىٰ قصدٍ إلا عدوٌّ للحقِّ والحقيقة.

هٰذه إضاءة علىٰ مفهوم الأيديولوجيا، أقول إضاءة لأنَّنا نتوقَّع المزيد من الإضاءات يمكن أن تلقى علىٰ هٰذا المفهوم. وهي وجهة نظرنا في الأيديولوجيا علىٰ أساسٍ منهجيٍّ وعلميٍّ وتاريخيٍّ. أعني ليست محض وجهة نظرٍ، ففي العلم والمفاهيم لا توجد وجهات نظر تحت سقف اللغة... توجد اجتهادات تبتعد وتقترب قليلاً أو كثيراً ولٰكنَّ الأصل يجب أن يبقىٰ موجوداً. فأيُّ وجهة نظرٍ هٰذه التي تلغي الأصل وتمحوه تماماً.

عندما أتحدَّث عن مفهومٍ من البداهة بمكان أن ثَمَّة مجموعة من الثوابت لا يمكن أن تتغيَّر، والألبسة التي نكسوها للمفهوم بعد ذٰلكَ هي التي تقبل التَّغيَّر والتَّبدُّل تبعاً لوجهات النَّظر، وقل تبعاً للأيديولوجا فلا بأس.

أقول ذٰلكَ لأننا وجدنا وجهات نظر في الأيديولوجيا، وبعضٍ غير قليلٍ غيرها من المفاهيم، وجهات نظر وآراء ومواقف ما أنزل الله بها من سلطان، ولا علاقة لها بالمفهوم الذي يتحدَّثون عنه، فتجد من يتحدَّث عن الأيديولوجيا وكأنَّهَا المقدَّس الذي لا يجوز المساس به، وتجد في الوقت ذاته من يتحدَّث عنها وكأنَّهَا وباءٌ يجب القضاء عليه، وهلم جرًّا...

خلاصة القول في مفهوم الأيديولوجيا هي أنَّها ليست عيباً ولا عاراً كما يحاول الكثيرون تصوُّرها أو تصويرها، وليست ممارسةً غوغائيَّةً، ولا ممارسةً معاديةً، وليست عقيدة الخصم أو العدو كما رأىٰ بعضهم وهٰذا من أسوأ تعريفاتها وأكثرها بلادة. وفي الوقت ذاته ليست قداسة ولا مقدسة.

الأيديولوجيا باختصارٍ شديدٍ هي فاعليَّة الأفكار التي يعتنقها أو يعتقدها المرء في طريقة تفكيره وفهمه رُبَّما لأيِّ شيءٍ في يمرُّ معه في حياته، ورُبَّما علىٰ الأقلِّ في الأمور المهمة أو الحاسمة، ولٰكنَّهَا بالتَّحديد الأكيد فاعليَّة هٰذا الأفكار القبليَّة في طريقة تفكيره وفهمه واختياره وتحليله... للأمور المتصلة بعقيدته الفكريَّة من قريب أو بعيد...

نعني أنَّهُ من غير المستملح ولا المستظرف إدخال الأيديولوجيا في طريقة شرب الشَّاي أو القهوة أو ركوب الدَّراجة أو لبس البنطلون... وإن كنَّا، ويا للمضحك المدهش، نرى من يبني هٰذه الأشياء علىٰ الأيديولوجيا، وفي ذٰلكَ أمثلة كثيرة لا تعرف إن كان عليك أن تضحك أم تتحسر أسفاً علىٰ حاملي هٰذه القناعات التي تجعل شرب القهوة أو الشاي أو لبس القبعة أيديولوجيا أو طقساً أيديولوجيًّا.

برنامج السيد أحمد
للتكنولوجيا والتعليم

الفصل الثالث

آلية التأثير الأيديولوجي

إنَّ غالبيَّـة المسـتعملين اليـوم ينسـون أو يتناسـون هٰـذه الارتباطـات المنطقيَّـة، لٰكـنَّهُم لا يسـتطيعون محوهـا مـن تفكيـرهم، فتـؤثِّر فـي تحليلاتهم، وتحـدِّد اختيـاراتهم وتفـرض عليهم مناهجهم علىٰ الرَّغْمِ عنهم.

عبد الله العروي

ولٰكن كيف تقود الأفكار من يعتقنها وكيف توجهه ولماذا؟

ثلاثة تساؤلات جدُّ مهمَّةٍ تكاد تختصر المشكلة برمَّتها، ولٰذلكَ من غير المبـالغ فيـه القـول إنَّ الإجابـة عَلـىٰ هٰـذه التَّسـاؤلات تعـني بصـورةٍ أو بـأُخْرَىٰ الكشف عن آليَّة التأثير الأيديولوجي في عمل الباحث أو المفكِّر عموماً، فما هي هٰذه الآليَّة؟

«إنَّ كلَّ استعمال لمفهوم الأيديولوجيا مرتبطٌ بمجالٍ وبعلَّةٍ وبوظيفةٍ ويقود حتماً إلىٰ نظريَّة، ويخلق نوعاً من التَّفكير... إنَّ غالبيَّة المستعملين اليوم ينسون أو يتناسون هٰذه الارتباطات المنطقيَّة، لٰكنَّهُم لا يستطيعون محوها من تفكيرهم، فتـؤثِّر في تحليلاتهم، وتحـدِّد اختيـاراتهم وتفـرض عليـهم منـاهجهم علـىٰ الـرَّغْمِ منهم»[٢٨].

والحقيقة أنَّ هٰذا التَّأثير وتحديد الاختيارات وفرض المناهج، أو ما يمكن أن نسمِّيه في جملته آليَّة التـأثير الأيـديولوجي ذو شقَّين متكـاملين متلازمـين في آن

٢٨ ـ عبد الله العروي: **مفهوم الأيديولوجيا** ـ ص ١٢ ـ ١٣.

معاً، هما الجانب الشُّعوري والجانب اللا شعوري، إذ إنَّ الأفكار التي يعتنقها المرء تؤثِّر فيه وتقوده شعوريًّا، أي إنَّهُ يدرك أنَّ ما يقوم به إنَّمَا هو بدافع ما يعتنقه من أفكارٍ ومثلٍ ومبادئ...

كما أنَّهَا تؤثِّر فيه وتقوده لا شعوريًّا من حيث هي موروثٌ فكريٌّ قابعٌ في طوايا العقل الباطن الذي يفعل فعله وهو متوارٍ، بعيد عن إدراك المرء ووعيه.

وقبل أن نعرِّج علىٰ هٰذين الجانبين اللذين يشكلان محور آليَّة التَّأثير لا بُدَّ من الإشارة إلىٰ الأساس الذي يستندان إليه وينطلقان منه، لأنَّهُ هو الذي يسوِّغ التَّأثير بكليته ويعطيه أهميَّةً وضرورةً في نظر المرء، وهٰذا الأساس يتمثَّل في حقيقة الأمر في مضمون الأيديولوجيا ودلالة الأفكار المكوِّنة لها، وهنا يمكن الحديث عن الصَّعيدين التَّاليين:

أولاً: شمولية الرؤية

يميل الإنسان بما يحمل من معارفَ وثقافاتٍ وتجاربَ وخبراتٍ، ولاسيَّما البحَّاثة منهم، إلىٰ تكوين رؤيةٍ خاصَّةٍ للكون والحياة، ولٰكنَّ هٰذه الرُّؤية تظلُّ غامضةً غير متمايزةٍ إذا لم يعها الإنسان، فإذا وعاها فإنَّهَا تتَّجه إلىٰ التَّبلور والتَّحدُّد، وتبدو في نظر صاحبها رؤيةً شاملةً تفسِّر العالم، ويشرئب إلىٰ إيصال هٰذا التَّفسير إلىٰ النَّاس جميعاً، وإقناعهم به، وبهٰذا المعنىٰ يتحدَّث **ياكوب باريون** عن سمتين أساسيتين تدخلان في تشكيل كلِّ موقفٍ أيديولوجيٍّ، وهاتان السِّمتان هما «النُّزوع نحو الكليَّة والشُّموليَّة. فالأيديولوجيا تقوم أساساً علىٰ تقديم تفسيرٍ شاملٍ وجامعٍ للعالم... وطموح الأيديولوجيا إلىٰ جعل نفسها

مقياساً للحياة الإنسانيَّة وسعيها من أجل سريان مفعولها علىٰ جميع النَّاس وكل مجالات الحياة»[٢٩].

لننتبه جيِّداً إلى عبارات **ياكوب باريون** إذ يتحدَّث عن الأيديولوجيا وكأنَّهَا كائنٌ حيٌّ مستقلٌ ببنيته وهويَّته مثل الإنسان ولها طموح إلى أن تجعل نفسها مقياساً للحياة الإنسانيَّة.

هٰذا مأزقٌ شديد الخطورة وتهويلٌ عجيبٌ وقع فيه غالبيَّة منظِّري الأيديولوجيا والمتحدثين إذ يتحدَّثون عنها على أنَّها بنيةٌ أو كينونةٌ حيَّةٌ تسعىٰ وتريد وتفعل وتطمح... أي على أنَّها ذاتٌ مستقلَّةٌ علىٰ الإنسان تقبع في ذات الإنسان ورُبَّما خارجه وتلك مصيبة أُخْرَى.

لا نريد الآن مناقشة هٰذه الفكرة وهي مسألةٌ تستحقُّ المناقشة والوقوف عندها طويلاً في حقيقة الأمر. ولٰكِنِّي سأتعامل معها من باب المجاز وأنَّ المقصود هو الإنسان بما يحمله من فكر أو عقيدة، أو العقيدة التي يعتنقها الإنسان وتمارس تأثيرها علىٰ النحو الذي نسمِّيه أيديولوجيا.

الإنسان بما يحمله من فكر وعقيدة لا يستطيع الانسلاخ عنها إنما يؤمن بها ويعتنقها ويعتقدها لأنه يؤمن أصلاً وأساساً أنَّها العقيدة الصحيحة السليمة، وبالاحتكاك مع العقائد الأُخْرَى وبمؤثرات تربويَّة واجتماعيَّة تلقاها عبر مراحل حياته يميل إلىٰ يميل إلىٰ أنَّ عقيدته هي الأصل والأساس، وهي الأكثر صحَّة وصواباً، ومن ثمَّ فإنَّهَا الرُّؤية الأكثر شموليَّةً التي تستحقُّ أن يؤمن بها الجميع، تستحقُّ أن يؤمن بها الجميع، لننتبه إلىٰ هٰذه الفكرة، عقيدته تستحقُّ أن يؤمن

٢٩ . ياكوب باريون: **ما هي الأيديولوجيا؟** . ترجمة أسعد رزوق . الدار العلمية . بيروت . ١٩٧١ . ص ٧٦ . ٩٩.

بها الجميع، ولٰذلك فإنَّ من واجبه أن يقنع النَّاس بها وينشرها. ولٰذلك بالكاد نجد صاحب عقيدةٍ مهما كانت لا يرىٰ هٰذه الرُّؤيا ولا يعمل علىٰ نشر عقيدته بإقناع النَّاس بها، والأخطر من ذٰلكَ كلِّه هو إيمانه بخطأ الآخرين من دون مناقشة ومن دون فهم... بل الأشد خطراً من ذٰلكَ كلِّه من دون رغبةٍ أو إرادةٍ أو حَتَّىٰ قابليَّة لفهم الآخر كما سنبين فيما سيأتي.

هٰذا الكلام يصحُّ علىٰ العقائدي أو الأيديولوجي وأعني بذٰلكَ الحزبي أو المتحزِّب لحزبٍ سياسيٍّ أو حَتَّىٰ دينيٍّ، ويصحُّ أيضاً علىٰ الإنسان العادي الذي ينتمي إلىٰ أيِّ حزبٍ أو حركةٍ سياسيَّةٍ أو دينيَّةٍ. فالإنسان أصلاً كائنٌ أيديولوجيٌّ سواءً انتمى لحراكٍ أو حزبٍ أو لم ينتم.

ثانياً: مصداقية الرؤية

ولٰكِنْ لماذا يشرئب العقائديُّ . الأيديولوجيُّ إلىٰ فرض رؤيته علىٰ النَّاس جميعاً؟ إنَّ السَّبب الجوهريَّ الذي يقف وراء ذٰلكَ هو ما يمكن أن نسمِّيه مصداقيَّة الرؤية، هٰذه المصداقيَّة المرتبطة بصاحبها ارتباطاً وثيقاً، منطقيًّا ونفسيًّا لا يمكن للمرء أن يؤمن بفكرةٍ هو متيقِّنٌ أو مقتنعٌ بأنَّهَا كاذبةٌ أو خاطئةٌ أو باطلةٌ، يستطيع الإنسان أيُّ إنسانٍ أن يكذب علىٰ الجميع ولٰكِنَّهُ لا يستطيع أن يكذب علىٰ نفسه، لا يستقيم ذٰلكَ مع بنية العقل والتَّفكير. وبهٰذا المعنىٰ فإنَّ الأيديولوجيا «تكتسي صبغةً سلبيَّةً أو إيجابيَّةً حسب هويَّة المستعمل، يرىٰ المتكلِّم أيديولوجيَّته الخاصَّة عقيدةً تعبِّر عن الوفاء والتَّضحية والتَّسامي، ويرىٰ في أيديولوجيَّات الخصوم أقنعةً تستتر وراءها نوايا خفيَّة ولا واعية يحجبها أصحابها حَتَّىٰ عن أنفسهم، لأنَّهَا حقيرةٌ لئيمَةٌ.

إنَّ أيديولوجيا المتكلِّم تغيِّر الطَّريق فتهدي الخلق إلىٰ دنيا الحقِّ، والعدل، بَيْنَما تعمي أيديولوجيا الخصوم النَّاس عن سبيل الحقيقة والسعادة»[٣٠] ولذٰلك فإنَّ وفاء وحرص وإخلاص وتفاني الأيديولوجي للآخرين وللإنسانيَّة، يفرض عليه أن يخلِّصهم من الانجراف وراء المخادعين المضللين الذين يبعدونهم عن جادة الحقِّ والصَّواب.

وهنا يندفع الأيديولوجي للاضطلاع بمهمَّة تثوير النَّاس وإطلاعهم علىٰ حقائقه التي توصل إليها بإخلاصه وحرصه، مكرِّساً جهوده لإثبات ما توصل إليه من حقائق لإقناع الآخرين بها، وهنا يمارس التَّأثير الشُّعوري واللاشعوري دوره في توجيه الباحث وقيادته إلىٰ طرائق محدَّدةٍ في معالجة مسائله وإثباتها، وانتقاء ما يتناسب مع أيديولوجيته من الأفكار والمبادئ والأسس... وغضِّ الطَّرف عمَّا سواها.

من الضَّرورة بمكان أن ندرك جيِّداً هنا أنَّ هٰذا الإيمان المرء بمصداقيَّة الأفكار التي يحملها والعقيدة التي يعتنقها لا يعني أبداً أنَّهُ مصيب في ذٰلِكَ. وإلا لكانت كلُّ العقائد المتناقضة صحيحةً. إنَّهَا صحيحةٌ في نظر صاحبها وحسب، صحيحةٌ في نظر من يعتنقها ويعتقدها وحده.

هل يعني ذٰلكَ أنَّهُ لا توجد عقيدةٌ صحيحةٌ؟

توجد عقيدةٌ صحيحةٌ هي عقيدتي. هٰذا الجواب ليس مزحةً، هٰذا جواب أيِّ شخصٍ وأيُّ صاحب عقيدةٍ... وكلُّ إنسانٍ صاحب عقيدةٍ بطبيعة الحال. وبعيداً عن ذٰلك توجد حقيقةٌ بالضَّرورة، وتوجد عقيدةٌ صحيحةٌ

٣٠. عبد الله العروي. **مفهوم الأيديولوجيا**. ص ١٠.

بالضَّرورة. لا يمكن أبداً ولا بحالٍ من الأحوال أن يكون كلُّ شيءٍ خطأ وكل عقيدة خطأ.

المشكلة الكبيرة في مسألة الحقيقة هنا هي أنَّ للحقِّ وجهٌ واحدٌ وللباطل ما تبقَّىٰ من الأوجه. إذا كان لون هٰذا القلم بنفسجيًّا فقولك لونه بنفسجيٌّ هو الوجه الصَّحيح الوحيد، وإذا أردت أن تكذب فأمامك مليون احتمال بل أكثر. وإذا كان الكرسيُّ داخل هٰذه الغرفة وأردت أن تقولَ الصِّدق أو الحقيقة فأمامك قولٌ واحدٌ وحيدٌ هو: إنَّ الكرسي داخل هٰذه الغرفة، ولا ننفي التَّلاعب بالتَّعبير بطبيعة الحال، وإذا أردت أن تكذب فإنَّك تمتلك آفاقاً مفتوحةً غير منتهيةٍ لتقول الكذب... ملايين الاحتمالات أمامك، بَيْنَمَا أمامك احتمالٌ واحدٌ وحيدٌ إذا رمت الصِّدق.

هٰذه هي المصيبة الكبرىٰ والحقيقيَّة فالقناعات والعقائد التي يحملها البشر متنوِّعةٌ تنوُّعاً لا حدود له، بَيْنَمَا الحقُّ والصَّواب في كلِّ أمرٍ واحدٍ. ومع ذٰلكَ ما من أحدٍ يرىٰ أنَّ عقيدته أو قناعته خاطئةً. بل يراها عين الصَّواب والحق والصدق.

إذن لا بديل عن التَّحايل النَّفسي الذي يلف حول الحقيقة بالمداورة للاقتناع بأنَّ ما يحمله من وهم إنَّما هو حقيقةٌ وصدقٌ. وهٰذا ما يكشف لنا عن سرٍّ أو سبب اقتناع النَّاس بأوهامٍ صريحةٍ وإيمانهم بها عَلَىٰ أنَّهَا هي أسُّ الحقِّ والحقيقة وأنَّها الأصل والفصل وما عداها باطلٌ فاسدٌ ضالٌّ مضلِّلٌ.

لا يستطيع الإنسان أن يعتقد أمراً وهو معتقدٌ ببطلانه ولذٰلك تأتي الحيل الدِّفاعيَّة من البنية النَّفسيَّة لتلتف علىٰ الحقيقة وتُلبسها ألبسةً غيبيَّة وأسطوريَّة

وما ورائيَّة لتجعل قبولها واستساغتها أمراً سهلاً ومُقْنِعاً. يقتنع الإنسان أنَّ عبادة الحجر أمرٌ ممجوجٌ ولا قيمة له وأنَّهُ سخفٌ فلماذا يفعل ذٰلكَ إذن؟ لأنَّهُ يتحايل علىٰ الحقيقة بإلباس عبادة الحجر لبوساً أسطوريًّا وميتافيزيقيًّا ليغدو الأمر مقبولاً ويخرج المرء من دائرة السُّخف والهراء التي تحيط بهٰذا العمل ما لم تكن تلك التبريرات الخرافيَّة موجودة.

كثيرٌ من الشُّعوب وكذٰلك الأشخاص يعتقدون عقائد أو قناعاتٍ سخيفةً متناقضةً واهيةً تتهاوىٰ أمام أوَّل مناقشةٍ ولٰكنَّهُم مع ذٰلكَ يعتنقونها بقناعةٍ غير قابلة للتَّزعزع. القناعات مبنيَّة عَلَىٰ أساس المصداقيَّة غير القابلة للجرح أو التَّعديل.

خاتمة

بهٰذين العنصرين؛ الشُّموليَّة والمصداقيَّة، تتَّشح أيُّ عقيدةٍ يعتنقها المرء سواء أكانت سياسيَّةً أم دينيَّةً أم اجتماعيَّةً أم منظومة أفكارٍ فرديَّةٍ أو شخصيَّة... وبهٰذين العنصرين تتحصَّن قناعات الذَّات، وبهٰذين العنصرين يتعامل الإنسان أو الذَّات مع الخارج أو الآخر سماعاً وإسماعاً.

الخارج والآخر. أمران مختلفان بطبيعة الحال وليسا واحداً وإن كان يمكن القول بأنَّ الخارج يمكن أن يتضَّمنَ الآخر. قلت الآخر لأنَّ الآخر ذات أُخْرَىٰ سواء أكانت فرديَّة أم جمعيَّة. أمَّا الخارج فهو المعطيات الخارجيَّة التي يتلقاها المرء أو يستقبلها من معطيات علميَّة أو معرفيَّة أو رُبَّما غيرها وإن كانت أيُّ معطياتٍ خارجيَّةٍ ستتحوَّل في المحصلة إلىٰ معطياتٍ علميَّةٍ أو معرفيَّةٍ لأنَّهَا لا يمكن أن تكون إلا مدركات تحت باب أيِّ حاسَّةٍ، وفي النَّتيجة لن تكون هٰذه المدركات إلا معلومات بطريقةٍ أو بِأُخْرَىٰ.

التَّأثير الأيديولوجي يمتدُّ إلىٰ كلِّ ما تتعامل معه الذَّات بالمطلق ولٰكِن غالباً ما تنحصر أو تتأجج الفاعليَّة الأيديولوجيَّة أمام ما يمسُّ ما يسميه الكثيرون القناعات المبدئيَّة.

هٰذه هي الآليَّة أو بالأحرىٰ مركِّبات آليَّة التأثير الأيديولوجي. كيف يتمُّ ذٰلك؟ يتمُّ إمَّا بآليَّة شعوريَّةٍ مباشرةٍ، أو بآليَّةٍ لاشعوريَّةٍ. الأمران كلاهما ما سنتكلم عليه الآن.

الفصل الرابع

التأثير الشعوري للأيديولوجيا

الأيديولوجيا جزءٌ عضوياٌ من كلِّ وحدةٍ مجتمعيَّةٍ... وبنية ضروريَّة للحياة التَّاريخيَّة للمجتمعات، لا يمكن أن تظلَّ حيَّةً من دون هٰذه التَّشكيلات النَّوعيَّة، هٰذه الأنظمة للتَّطوُّرات التي هي الأيديولوجيا... إنَّ هٰذه المجتمعات تعزِّز الأيديولوجيا كما لو أنَّهَا المُناخ أو البيئة الضَّروريَّة لتنفُّسها، لحياتها التَّاريخيَّة.

ميشيل فادية

يستمدُّ هٰذا الجانب قدرته التَّأثيريَّة في الباحث من كون الأيديولوجيا ظاهرة اجتماعيَّة أو جمعيَّة، من حيث هي مجموعة الأفكار والمبادئ والأسس... التي تهيمن في مجتمعٍ ما علىٰ أشكالٍ مختلفةٍ متباينةٍ، غالباً ما تتَّخذ شكل العادات والتَّقاليد والأعراف، بالمعاني والدلالات الأوسع لهٰذه الكلمات، لتغدو الأيديولوجيا بهٰذا المعنىٰ. كما يقول **كارل ماركس وفريدريك أنجلز** - ١٨٩٥م: «الأفكار السَّائدة في عصرٍ معيَّنٍ والتي هي علىٰ الدَّوام طريق أفكار الطَّبقة السَّائدة في ذٰلك العصر، حيث تعتبر الأفكار السائدة من هٰذا المنظور التَّعبير المثالي عن العلاقات التي تجعل الطَّبقة الواحدة طبقةً سائدةً»[٣١].

٣١ ـ كارل ماركس وفريدريك إنجلز: **الأيديولوجيا الألمانية** ـ ترجمة فؤاد أيوب ـ دار دمشق ـ دمشق ـ ١٩٧٦م ـ ص٥٦.

عَلىٰ أنَّ سيادة هٰذه الطَّبقة قد تكون بالمعنىٰ السُّلطويِّ والسِّياسيِّ وبذٰلك تضيق حدود هٰذه الطَّبقة ويقلُّ عدد أفرادها، وقد تكون السِّيادة بالمعنىٰ النَّظري من حيث إنَّهَا الشَّريحة الأوسع في المجتمع التي تهيمن أفكارها وتسود علىٰ عموم المجتمع. ولتغدو الأيديولوجيا بهٰذا المعنىٰ «جزءاً عضويًّا من كلِّ وحدةٍ مجتمعيَّةٍ... وبنية ضروريَّة للحياة التاريخيَّة للمجتمعات، لا يمكن أن تظلَّ حيَّة من دون هٰذه التَّشكيلات النَّوعيَّة، هٰذه الأنظمة للتَّطورات التي هي الأيديولوجيا... إن هٰذه المجتمعات تعزِّز الأيديولوجيا كما لو أنَّهَا المناخ أو البيئة الضَّروريَّة لتنفُّسها، لحياتها التاريخيَّة»[٣٢].

وفي الحالين كليهما تكون الأيديولوجيا بمنزلة بؤرةٍ تلتقي حولها إرادات الأفراد الذين يعتنقونها ويجدون في أنفسهم مرغمين علىٰ الانقياد لها والدفاع عنها لاعتبارات متعدِّدةٍ ومختلفةٍ، سيَّان أكان ذٰلك شعوريًّا، ويتجلَّى ذٰلك عند الذين يعتنقون هٰذه الأيديولوجيا بصورةٍ واعيةٍ، أم لا شعوريًّا عند عامَّة الأفراد الذين ينتمون إليها، ويتجلَّىٰ الانقياد للأيديولوجيا أكثر ـ شعوريًّا ـ خصوصاً ـ ولا شعوريًّا، أيضاً ـ عند حدوث تغيُّراتٍ نوعيَّةٍ في المجتمع أو الطَّبقة المهيمنة خصوصاً، إذ تجد الطبقات الجديدة السَّائدة ذاتها أمام تحديات عصبيَّة تفرض عليها تسويغ سيادتها وتوكيد مواقفها وترسيخ مواقعها، وأن تظهر للآخرين علىٰ أنَّهَا هي الأصح وهي الأحرص علىٰ المصلحة العامة، ذٰلك أنَّ «كلَّ طبقةٍ تحتل مكان طبقةٍ كانت سائدةً قبلها، مضطرَّةٌ ولو بمجرَّد تحقيق أهدافها إلىٰ تمثيل مصلحتها علىٰ أنَّهَا المصلحة المشتركة لجميع أعضاء المجتمع، يعني أنَّهُ ينبغي لها

٣٢ ـ ميشيل فادية: **الأيديولوجيا؛ وثائق من الأصول الفلسفية**. ص ٩٣.

أن تعطي أفكارها شكل العموميَّة، وأن تمثلها علىٰ أنَّهَا الأفكار الوحيدة الصَّالحة بصورةٍ شاملةٍ»[٣٣].

والحقيقة أنَّنا لا نستطيع هنا الفصل بَيْنَ الجانب الشُّعوري والجانب اللاشعوري في تأثير الأيديولوجيا في الأفراد الذين يعتنقونها، ذٰلك أنَّ «بنية كل أيديولوجيا هي ـ بنيةٌ ـ انعكاسيَّةٌ باستدعائها الأفراد كفاعلين باسم ذاتٍ وحيدةٍ ومطلقةٍ، أي في المرآة، وهي مزدوجة الانعكاس، ولهٰذا الازدواج في الانعكاس هو الذي يكوِّن الأيديولوجيا ويؤمِّن سيرها ـ إذ إنَّ ـ كلَّ أيديولوجيا ـ بحدِّ ذاتها ـ ممركزة، والذَّات المطلقة تحتل المكان الوحيد في المركز، وتستدعي حولها الأفراد الذين لا حصر لهم كفاعلين أو ذوات»[٣٤].

ولأنَّ هٰذه البنية الانعكاسيَّة المزدوجة للأيديولوجيا ـ كما يرىٰ **لويس التوسر** ـ ١٩١٨ ـ ١٩٩٠م تقوم في الوقت ذاته بـ:

«١. استدعاء الأفراد الفاعلين.

٢ ـ إخضاعهم للذات.

٣ ـ الاعتراف المتبادل بَيْنَ الفاعلين والذَّات، وَبَيْنَ الفاعلين أنفسهم، وفي النهاية تعرف الفاعل علىٰ نفسه.

٤ ـ الضَّمانة المطلقة بأنَّ كلَّ شيءٍ هو كذٰلك، وبأنَّ كلَّ شيءٍ يسير علىٰ ما يرام، شرط أن يعترف الفاعلون بما هم عليه، وأن يتصرَّفوا علىٰ هٰذا

---

٣٣ ـ كارل ماركس وفريدريك إنجلز: **الأيديولوجيا الألمانية** ـ ص ٥٧.

٣٤ ـ لويس ألتوسر: **الأيديولوجيا وأجهزة الدولة الأيديولوجية** ـ ضمن كتاب: دراسات لا إنسانوية من لويس ألتوسر وجورج كانفليم ـ ترجمة سهيل القش ـ الموسوعة الجامعية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ ١٩٨١م ـ ص ١١٧.

الأساس»[٣٥] فإنَّ اللبس يبدو جليًّا بأنَّ آليَّة التَّأثُّر الأيديولوجي آليَّة لاشعوريَّةٌ صرفٌ، حيث يسير الفاعلون وحدهم منقادين للأيديولوجيا بصورةٍ لا شعوريَّةٍ خاليةٍ من الوعي، والحقيقة أنَّ هٰذه الآليَّة كما أشرنا آليَّة مزدوجة تضمُّ الجانبين الشُّعوري واللاشعوري في آنٍ معاً، بحيث يتعثَّر الفصل بَيْنَهُما، ويتجلَّىٰ ذٰلك إذا نحن حلَّلنا ما تنطوي عليه عبارة الفاعل من دلالات، والتي تتضمَّن حسبما يشير **التوسر** معنيين اثنين:

١ . ذاتيَّة حرَّةٌ: مركز مبادرات فاعل ومسؤول عن أعماله.

٢ . كائنٌ مستعبدٌ، خاضع لسلطة عليا، أي عديم الحريَّة إلا فيما يخص الموافقة بحريَّة علىٰ خضوعه»[٣٦] فالذَّاتيَّة الحرَّة باعتبارها مركز مبادرات مسؤولاً، يعني انقياده للتأثير الأيديولوجي عن وعي وإدراك، وهٰذا ما يمثل الجانب الشُّعوري، أمَّا الفاعل بوصفه كائناً مستعبداً مسلوب الحريَّة، فهو المنقاد لا شعوريًّا للأيديولوجيا، إلا إذا وافق بحريَّةٍ علىٰ خضوعه، فإنَّ آليَّة التَّأثير الأيديولوجي فيه تكون مزدوجة، أي شعوريَّة ولا شعوريَّة.

إنَّ التَّأثير الشُّعوري للأيديولوجيا هو التَّأثير الأخطر لها من النَّاحية الأخلاقيَّة لا من ناحية نتيجة التَّأثير وإن كان التَّأثير اللاشعوري يعوض فرق الخطورة من ناحية النَّتيجة.

التَّأثير الشُّعوري للأيديولوجيا يعني من طرفٍ مقابلٍ وعلىٰ نحوٍ مباشرٍ التَّأثيرَ أو التَّأثُّر الإراديَّ، أي إنَّ المرء يقرِّر بإرادته ووعيه أن يستخدم وعيه وفكره

٣٥ . م. س . ص١١٧ . ١١٨.

٣٦ . م. س . ص١١٨.

المسبق في فهم الحقائق المتلقاة أو في الانسياق لمتطلبات الأيديولوجيا التي ينتمي إليها أراغباً كان أم مرغماً في انتمائه.

نحن أمام ثلاثة مستويات أو مناحٍ أو اتجاهاتٍ لتأثير الأيديولوجيا الشُّعوري. مستويان من الذَّات إلىٰ الخارج أو الآخر انطلاقاً من بنية الوعي الأيديولوجي المهيمنة علىٰ فكر صاحبها، ومستوى من المنظومة أو البنية الأيديولوجيَّة السائدة إلىٰ داخل الذَّات.

المستوى الأكثر وضاعة وقذارة بَيْنَ هٰذه المستويات هو مستوى التَّحريف الإرادي للحقائق وتزويرها مع العلم بأنَّهَا بعلم الفاعل خاطئةٌ أو باطلةٌ أو غير صحيحةٍ من أجل خدمة أغراض أيديولوجيَّة ينتمي إليها صاحب التحريف والتَّزوير وقلب الحقائق. ومن أشهر الأمثل علىٰ ذٰلكَ ما فعله العالم الألماني **إرنست هيكل** ـ ١٩١٩ ـ E. Heackel الذي «زوَّر مرَّة صورة لجنين حيوان حَتَّىٰ تبدو قريبة الشَّبه بجنين الإنسان، فيثبت بهٰذا نظريَّته في التَّطوُّر»[٣٧]. ومن الأمثلة السَّاطعة علىٰ ذٰلكَ أيضاً «تنشيط أجهزة المخابرات الأمريكيَّة لدراسات علم الأناسة ـ Anthropology حول الشُّعوب المتخلِّفة»[٣٨]. متطلعة من وراء ذٰلكَ إلىٰ أغراض متعدِّدة لعَلَّ أهمَّها تعزيز هيمنتها على هٰذه الشُّعوب بتكريس تخلف هٰذه الشُّعوب عبر آليَّة داخليَّة نابعة من اعتقاد هٰذه الشُّعوب بأنَّهَا متخلِّفة بالطبيعة والخلقة ولن ينفعها سعيٌ ولا جهدٌ للخروج من هٰذه البوتقة.

هٰذان مثالان وحسب وليسا الوحيدين أبداً فما جهلنا منها أكثر مما علمنا، وما علمنا ذٰلكَ أصلاً إلا بالمصادفة فمن يفعل هٰذه الأفاعيل حريص

٣٧ ـ د. توفيق الطويل: **أسس الفلسفة**. دار النهضة العربية القاهرة. ط ٦ ـ ١٩٧٦م. ص ٢٠٧.

٣٨ ـ د. نايف بلوز: **مناهج البحث في العلوم الاجتماعية**. مطبعة الداودي. دمشق ١٩٨٤م. ص ٢٤١.

علىٰ عدم الانكشاف والانفضاح حَتَّىٰ لا تنسف أعماله من أساسها. ولذٰلك فاليقين أنَّهُ يوجد عشرات بل مئات ورُبَّما مئات آلاف الحالات المشابهة من التزوير والتلفيق.

هنا أتساءل ويتساءل الكثيرون: هل يمكن أن نسمي ذٰلكَ تأثيراً أيديولوجيًّا في الباحث؟

نعم، هو تأثيرٌ بصيغةٍ من الصيغ، ولٰكنَّهُ تمَّ بوعي وإدارةٍ وتصميمٍ علىٰ التَّزوير خدمةً للأيديولوجيا التي ينتمي إليها. لولا إيمانه بأيديولوجيته لما سعى لإثباتها... ولٰكنَّهُ سعى لإثباتها بالتَّزوير. وهنا يبرز السُّؤال الأكثر أهميَّةً وخطورةً: ألا يعني ذٰلكَ أنَّهُ يدرك أنَّ ايديولوجياته باطلةٌ ويحاول إثباتها بالتَّزوير والتَّحريف؟

إنَّنا أمام حالٍ عجائبيَّةٍ للإنسان. من المفترض منطقيًّا أن يجب فيمن يصل إلىٰ هٰذه النتيجة، أنَّهُ لولا بطلان ما يدعيه من حقائق لما اضطر للتَّزوير والتَّحريف لإثبات مزاعمه. ولٰكنَّهُ مع ذٰلكَ يصرُّ علىٰ أنَّ ما يؤمن به حقيقة صادقة وشموليَّة... إنها نقطة الانطلاق التي بدأنا بها لدى الحديث علىٰ آليَّة التأثير.

علىٰ أيِّ حالٍ، هي مسألةٌ نفسيَّةٌ لم تفت علماء النَّفس من جهة المبدأ لا الصورة. علماء النفس لم ينتبهوا إلىٰ السِّياق الأيديولوجي في هٰذه المسألة وإنَّمَا انتبهوا إلىٰ آليَّة النَّفس في فهم الحقائق وقبولها ورفضها. وهٰذا موضوع ليس يعنينا هنا الآن.

ثَمَّةَ مستوً آخر موازٍ في الانطلاق والاتجاه ولٰكنَّهُ لا يقوم علىٰ التَّزوير الإراديِّ المسبَّق التَّصميم، إنَّهُ خضوعٌ وتبعيَّةٌ للأيديولوجيا من جهة الفهم

والتَّفسير والشَّرح والتَّوضيح، قد يلجأ إلىٰ التَّزوير ولٰكنَّهُ غير مقصودٍ أو قل غير مقرَّرٍ مسبَّقاً بقصد التَّزوير والتَّحريف، ولٰكنَّهُ لا يختلف عنه في المبدأ. قبل نحو أربع سنوات زارنا مندوب الرَّئيس السُّوفيتي **ميخائيل چورباتشوف** ليشرح لنا طبيعة التَّغيرات التي يشهدها الاتحاد السُّوڤيتي وأقلقت اليساريين في أنحاء العالم. لا أعرف ماذا يوجد في ضمير هٰذا المندوب ولا ماذا يوجد في ضمير **چورباتشوف** ولٰكِنِّي علىٰ يقينٍ منذ ستِّ سنواتٍ عندما استلم **چورباتشوف** السلطة وبدأ حملة التَّطهير بأنَّهُ يقود الاشتراكيَّة والاتحاد السُّوڤيتي إلىٰ الهاوية والانهيار وقد تتبعت هٰذه التَّغيرات لحظةً بلحظة وسجَّلتها علىٰ دفاتر مذكراتي لأبرهن بها لدىٰ أيِّ حديثٍ... كنت علىٰ يقين من ذٰلكَ. ولٰكنَّ المحاورين أعجبوا بتحليل مندوب الرئيس السُّوفيتي ورأوه إنقاذاً للاشتراكيَّة والشِّيوعيَّة، فقلت له:

ـ إن ما يقوم به الرئيس **چورباتشوف** حملة إصلاحيَّة رائعة ستنتهي بتفكيك الاتحاد وانهيار السِّياسة الاشتراكيَّة.

ثار عليَّ الكثيرونَ احتجاجاً ورأوا ذٰلكَ جهلاً وعدم فهمٍ لما يفعله العبقري **چورباتشوف** الذي جاء لينقذ انظام الاشتراكية وحركات تحرُّر الشُّعوب وهلم شفطاً ولفطاً...

لا أريد أن أطيل، أريد فقط لفت الانتباه إلىٰ طبيعة التَّأثير الشُّعوري للأيديولوجيا في المستوى الثَّاني الذي لا يقوم علىٰ التزوير والتَّحريف المقرَّر مسبَّقاً... إنَّهُ قولبة العقل والفهم ومنهج التَّفكير بوعيٍ وإدراكٍ لعدم فهم شيء أو لفهم شيء بطريقة محدَّدة تخدم الأيديولوجيا من وجهة نظر الفاهم أو الْمُدْرِك.

قبل أن أنتقل إلىٰ المستوى الثالث لا بُدَّ من إيضاح مسألةٍ مهمَّةٍ في هٰذا الصَّعيد وحَتَّىٰ الصَّعيدين؛ السَّابق واللاحق. الأيديولوجيا أو العقيدة أو المنظومة الفكريَّة التي يحملها المرء وتتبلور ببنية أيديولوجيا وطريقة تفكير لا علاقة لها أبداً بطريقة التَّفكير والفهم والتَّأثير والتَّأثر وفق ما سبق وما سيأتي، المسألة منوط بالذَّات، بالشَّخص، بالإنسان... مدىٰ مهارة الإنسان وبراعته ومنطقة ومنهجه وثقته في نفسه هي التي تفعل وتنفعل... المسألة شخصيَّة ذاتيَّة وليست موضوعيَّة. ولذٰلك توجد فروقٌ فرديَّةٌ بعدد الأفراد في البنية العقائديَّة الواحدة... كل واحدٍ يفكر بطريقته ويتأثر ويؤثر بطريقته.

في المستوى الثَّالث من التَّأثير الشُّعوري للأيديولوجيا نجدنا أمام الخضوع الإرادي، الاختياري للأيديولوجيا السَّائدة في المجتمع المتمثلة في منظومة العادات والتَّقاليد والأعراف وما جرى في حكمها، وهٰذا ما بدأنا به حديثنا.

كلُّ إنسانٍ ملزمٌ شاء أم أبىٰ بالخضوع لمنظومة المجتمع الذي يعيش وعاداته وتقاليده وأعرافه حَتَّىٰ ولو كان غير مقتنعٍ بها أو غير قابلٍ لها. وهٰذا الإلزام ليس قسريًّا بقدر ما هو حاجةٌ تعايشيَّةٌ لا غنىٰ عنها. يستطيع أيُّ إنسانٍ أن ينشر ويخرق هٰذا التَّقليد أو ذاك ولٰكنَّهُ بالمجمل قابلٌ وملتزمٌ بالمنظومة جملةً قبولاً والتزاماً إراديًّا. يستطيع أن يخرق تقليداً و أكثر ولٰكنَّهُ لا يستطيع أن يخرق المنظومة أو البنية، وليس من مصلحته أصلاً أن يفكر بهٰذه الطريقة.

تغيير المنظومة أو البنية هو تغيير للمجتمع كلِّهِ وهٰذا محالٌ أن يكون بَيْنَ يومٍ وليلةٍ ومحالٌ أن يكون علىٰ يد شخص... يحتاج إلىٰ عمليَّة تفاعليَّة قد تمتد مئات السِّنين وقد تفلح وقد لا تفلح إذا كان هناك قرار بتغيرها.

ومع ذٰلكَ وجدنا كثيراً من الأشخاص ارتفع طموحهم إلىٰ مستوى التفكير في قلب مفاهيم مجتمعٍ وقيمه وعاداته وتقاليده... ولم نسمع عن نجاح أحدٍ أبداً في ذٰلكَ. مثل هٰذا الطموح موجودٌ في رأس أيِّ مراهقٍ أو ثائرٍ متمرِّدٍ يتحرَّك بانفعالات المراهقة لا بمقتضيات التَّفكير المنطقيِّ أو العلميِّ.

يبدو التَّأثير الشُّعوري للأيديولوجيا من ناحية هٰذا المستوى علىٰ نحو جليٍّ لدىٰ الأشخاص الذين ينتقلون من مجتمعٍ إلىٰ مجتمع. سرعان ما يتقولب الشَّخص مع مقتضيات العيش في المجتمع الجديد مهما تباعدت عن شروط عيشه في مجتمعه الأصلي. علماء النفس وعلماء الاجتماع يسمون ذٰلكَ تأقلماً أو انسجاماً، ولا بأس في ذٰلكَ، ولٰكن يمكن أن نسميه أيضاً خضوعاً شعوريًّا، إراديًّا لمقتضيات أيديولوجيا المجتمع الجديد. ولا يخلو ذٰلكَ كلُّه من تدخُّل عوامل لاشعوريَّة أو تأثير لاشعوري للأيديولوجيا. فما التَّأثير اللاشعوري للأيديولوجيا؟

أحمد
برج السيد
التكنولوجيا والعلم

الفصل الخامس

التأثير اللاشعوري للأيديولوجيا

الأيـديولوجيا كمـا يقـرِّر إنچلـز «تعنـي مجموعـةً مـن الأفكـار التي يحيـا النَّاس الـذين نتابع هٰذه السيرورة الأيديولوجيَّة في أذهانهم، يقرر في التحليل الأخير مجرىٰ هٰذه السَّيرورة فهذه الواقعة تبقىٰ مجهولةً منهم كليًّا».

رشيد مسعود

لعَلَّ الجانب اللاشعوري هو الأكثر والأشد تأثيراً في الباحث، ذٰلكَ أنَّهُ يترافق مع الجانب الشُّعوري علىٰ نحوٍ يصعب فيه الفصل بَيْنَهما من جهة أولىٰ، ويمارس تأثيره مستقلاً من جهةٍ ثانيةٍ. لأنَّ إيمان الإنسان بحقيقةٍ ما يجعله ينظر إلىٰ كلِّ الظَّواهر بمنظار هٰذه الحقيقة التي يؤمن بها، بصورةٍ لا شعوريَّة، سواءً آآمن بهٰذه الحقيقة عن قناعةٍ وبرهانٍ ووعيٍ، أم تلقاها مع ما تلقَّى من ميراثٍ فكريٍّ. وللأيديولوجيا أهميتها الكبيرة والخطيرة في حياة الإنسان «فهي تزوده بتوجيه إجماليٍّ في حياته وتضع أمامه الأهداف والمهام، مثلما تمدُّه بالدَّوافع علىٰ تحقُّق هٰذه الأهداف وإنجاز تلك المهام»[٣٩].

ولذٰلك يجد الباحث نفسه مدفوعاً بدوافع لاشعوريَّة مصدرها أيديولوجيته الرَّاسخة في أعماق عقله الباطن، إلىٰ قراءة مختلف ظواهر الكون والحياة بما يتفق وحقائقه التي يعتنقها من غير أن يدري بالضَّرورة حقيقة هٰذه الدوافع. ذٰلك أنَّ الأيديولوجيا كما يقرِّر **إنچلز** «تعني مجموعة من الأفكار التي يحيا الناس الذين

٣٩. ياكوب باربون: **ما هي الأيديولوجيا؟**. ص ١١٥.

نتابع هٰذه السَّيرورة الأيديولوجيَّة في أذهانهم، يقرِّر في التَّحليل الأخير مجرىٰ هٰذه السَّيرورة فهٰذه الواقعة تبقىٰ مجهولةً منهم كليًّا»[٤٠].

وليس هٰذا فحسب، بل إنَّ المفكر الذي ينقاد متأثراً بحامله الأيديولوجي، قد يعتقد في كثيرٍ من الأحيان أنَّهُ يعي العوامل التي تدفعه وتقود خطاه، فيما هو في حقيقة الأمر يجهلها. ولقد أبان **إنجلز** هٰذه الحقيقة بصريح العبارة في رسالته الشَّهيرة إلىٰ **مهزينغ** في الرَّابع من تموز عام ١٨٩٣م. إذ قال: إنَّ «الأيديولوجيا هي عمليَّة يمارسها فعلاً المفكر المدعي بوعي ولكنَّهُ وعيٌ زائف، ذلك أنَّهُ يظل يجهل القوى المحركة الحقيقيَّة، ولولا ذلك لما كانت هذه العمليَّة عمليَّة أيديولوجيَّة»[٤١] وكأنَّهُ يجعل بذلك من التَّأثير الأيديولوجي آليَّة لا شعوريَّة محضٍ يظلُّ تأثيرها مخفيًّا عن الإنسان، حتى إذا علمه لم يعد تأثيراً أيديولوجياً. وهذا أمر فيه خلاف.

وبناء علىٰ ذٰلك فإنَّهُ من كبير «الخطأ أخذ القول الأيديولوجي بالحسبان علىٰ محض مستوى مضامينه الصَّريحة ـ ولنقل علىٰ مستوىٰ ما يدلُّ عليه ـ في حين أنَّ من المناسب تحليله بوصفه شبكة من ضروب الدال المحددة في وجه التقريب... وهٰذا من الصِّحَّة بحيث إنَّ أيَّ أيديولوجيا هي علىٰ الغالب تمفصل الموضوعات والرموز، التي كانت موجودة... تمفصلاً جديداً مختلفاً... والسبب في واقع الأمر أنَّ كل أيديولوجيا تؤمِّن نسبةً مختلفةً من العلاقات بَيْنَ ضروب الدال وما تدل عليه»[٤٢].

---

٤٠ ـ رشيد مسعود: **مادة الأيديولوجيا** ـ ص ١٦١.

٤١ ـ ميشيل فادية : **الأيديولوجيا؛ وثائق من الأصول الفلسفية** ـ ص٢.

٤٢ ـ اندره آكون: **الأيديولوجيا** ـ ضمن كتاب **المجتمع الحديث** ـ ترجمة وجيه أسعد ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٨٣م ـ ج٢ ـ ص٢٠٤.

أمَّا ما ينتقل آليًّا فهو بنية تفكير الأمَّة بجملتها؛ والعادات، والأعراف، والتَّقاليد، والأخلاق، والبنية النفسيَّة، والميول، والأهواء، والذَّائقة الجماليَّة، والتَّفضيلات، وأنماط السُّلوك، واللباقات الاجتماعيَّة، وكلُّ ما يندرج في هٰذا السِّياق. وكلُّ ذٰلك ينتقل باللغة في كلِّ مستوياتها؛ المفردات، والنَّحو، والتَّراكيب، والأساليب، والآداء. واللغة عامَّة هي حامل هٰذه العناصر من التُّراث. وبهذا المعنىٰ فإنَّ انتقالها من جيلٍ إلَى جيلٍ يتمُّ آليًّا، أي من دون تدخُّل الرَّغبة أو الإرادة أو الاختيار، ولذٰلك يمكن القول إنَّ هٰذا الانتقال الآليَّ لهٰذه العناصر من التُّراث إنَّما يتمُّ على الرَّغْمِ من إرادة الإنسان. وإلىٰ جانب اللغة فإنَّ الممارسة الاجتماعيَّة تلعب الدَّور المكمِّلَ والمساعد لنقل هٰذه العناصر نقلاً آليًّا من جيلٍ إلَىٰ جيلٍ. ورُبَّما تلعب المورِّثات البيولوجيَّة دوراً في ذٰلك.

المقصود بالانتقال الآليِّ هو الانتقال المباشر من دون تدخُّل الإنسان القصدي في النَّقل. ولا ينبغي أن يفهم من الآليَّة أنَّها تؤدِّي إلَىٰ نقل هٰذه العناصر كاملةً شاملةً من دون تغييرٍ من جيل إلَى جيل، لأنَّ هذه الآليَّة انتقائيَّة تلعب الظُّروف المرحليَّة والمعطيات التَّاريخيَّة والشُّروط الرَّاهنة الدَّور الحاسم في أسلوب نقل هذه العناصر والاختيار بينها. ولهذا السَّبب نجد دائماً أنَّ أنماطاً محدَّدةً من هٰذه العناصر تظهر في حالات الرَّخاء، وأنماطاً أُخْرَىٰ تظهر في حالة الضِّيق، وغيرها تظهر في حالة الحرب، وغيرها تظهر في حالة التخلَّف وهلمَّ جرًّا...

هذا يعني، فيما يخصُّنا هنا، ثلاثة أمور على الأقلِّ:

أوَّل هٰذه الأمور أنَّ البنية الفكريَّة لأيِّ أمَّة تتضمن بالضَّرورة مختلف التَّناقضات والدَّرجات في كلِّ عنصر من العناصر السَّابقة المكوِّنة للبنية الفكريَّة

من الأدنىٰ إِلَىٰ الأعلىٰ، فهي تتضمَّن علىٰ سبيل المثال؛ من أدنىٰ مراحل الانهزاميَّة إِلَىٰ قمَّة الاستبسال والتَّضحية، من حضيض الجبن إِلَىٰ ذروة البطولة، من شديد اللامبالاة والاستهتار إِلَىٰ أعلىٰ درجات الإحساس بالمسؤوليَّة... وهٰكذا دواليك حَتَّىٰ تأتي علىٰ كلِّ عنصر من عناصر هٰذه البنية من بنىٰ التُّراث. ويظهر كلُّ مستوىٰ أو درجة من هٰذه الدَّرجات ظهوراً عامًّا في المجتمع أو الأمَّة في المرحلة المناسبة أو المرحلة الَّتي تتطلبه. ومعنى الظُّهور العام هو سيادة هٰذا المستوى أو الدَّرجة لدىٰ الغالبيَّة العظمىٰ من أفراد المجتمع أَو الأمَّة، مع عدم نفي وجود حالاتٍ خاصَّةٍ دائماً في كلِّ مرحلةٍ. وفي هٰذا ما يفسِّر لنا كثيراً من الظَّواهر الَّتي تعيشها الأمم أو تمرُّ بها في مراحل مختلفة من سيرورتها التَّاريخيَّة كالثَّورات والانتفاضات والقنوط والاستسلام وغيرها كثير...

الأمر الثَّاني أنَّ هٰذه البنية ليست هي ذاتها الَّتي تكوِّن كلَّ الأمم وإنَّما لكلِّ أمَّة بنيتها الفكريَّة الخاصَّة الَّتي تفترق بها عن غيرها من الأمم، وهنا يمكن أن نفهم قول **كبلنج وإرنست رينان**: «الشَّرق شرقٌ، والغرب غربٌ»، وقبلهما قول **أرسطو**: «إذا ظهر فيلسوفٌ في الشَّرق صار نبيًّا، وإذا ظهر نبيٌّ في اليونان صار فيلسوفاً». وهنا أيضاً يمكن أن نفهم القول الشَّائع بأنَّ «الشَّرق عاطفيٌّ، والغربُ عقلانيٌّ»، وهنا يمكن أن نفهم أيضاً لماذا يعلو الحسُّ الاجتماعي في الشَّرق، ويدنو في الغرب. ولماذا تحكم النَّفعيَّة والذَّرائعيَّة والفرديَّة العالَم الغربيَّ بينما ترتفع راية الرُّوح الجماعيَّة أو الجمعيَّة في العالم الشَّرقي. وإذا نظرنا إِلَىٰ الشَّرق وحده، أو إِلَىٰ الغرب وحده، وجدنا أنَّ أحكامنا لا تنطبق بالدِّقة ذاتها علىٰ أيٍّ منهما انطباقاً كاملاً، لأنَّنا سنجد أنَّ في الشَّرق أُمماً، وفي الغرب أمماً، وكلُّ أمَّة لها خصوصيَّتها الَّتي تميِّزها عن غيرها من أمم عالمها الشَّرقي أو الغربيِّ.

الأمر الثَّالث أنَّ انتقال هٰذه العناصر هٰذا الانتقال الآلي المثبت علميًّا علىٰ نحوٍ يقطع دابر الشَّك والجدال، يجعل من الأسئلة المطروحة آنفاً عن الموقف من التُّراث بالقبول، أَو الرَّفض، أَو الاختيار، أسئلةً زائفةً تقود إِلَىٰ أجوبةٍ زائفةٍ، أي إنَّها لا تقدِّم أيَّ حقيقة، ولا تنجلي عن أيِّ معرفةٍ تحقِّق أدنى حدود المعقوليَّة أو المصداقيَّة. لأنَّ التُّراث وَفْقَ هذه الآليَّة من الانتقال لا ينتظر من أحد أن يقرِّر ما يختار وما يرفض، ولا أن يقرِّر ما هو صالح وما هو غير صالح ليقوم باختيار الصَّالح ورفض غير الصَّالح من أجل فرضه على المجتمع أو الأمَّة، ولو كان الأمر بهٰذه السُّهولة وهٰذا اليسر لما وجدنا أمَّة تتخلَّف وأمَّة تتأخَّر، ولما اختارت أمَّة أن تكون متخلِّفة، وكانت من ثَمَّ كلُّ الأمم في الصَّف الأول من التَّقدُّم والتَّحضُّر والقوَّة.

وعلىٰ افتراض تحقُّق ذلك تحقُّقا فرديًّا، وهو أمر ممكنٌ جدًّا، وواقعٌ فعلاً، فإنَّ هٰذا التَّحقُّق الفردي لا يمكن أن يُعَمَّمَ، ولا يمكن أن يفرض علىٰ المجتمع أو الأمَّة أن تلتزم بهذه الخيارات لأنَّها تظلُّ دائماً منغمسةً في الآليَّة الانتقائيَّة التَّلقائيَّة الَّتي تمارسها بنيتها الفكريَّة ذاتها علىٰ أفراد الأمَّة، ورُبَّما يصحُّ هنا استخدام اصطلاح «روح الأمَّة» الذي أطلقه **هيجل**. فروح الأمَّة بمعنىٰ من المعاني هي بنيتها الفكريَّة، وروح الأمَّة هي الَّتي تمارس سيادتها علىٰ أفرادها، وتفرض عليهم شروط تحقُّقها وظروفها ومعطياتها.

وهذا في حقيقة الأمر ما يفسِّر لنا ظاهرةَ ازدواجيَّةِ المثقَّف في الأمم المتخلِّفة بَيْنَ التَّنظير والتَّطبيق، بَيْنَ النَّظريَّة والممارسة، بَيْنَ الفكر والعمل... فالغالبيَّة العظمىٰ من المثقَّفين يقعون غالباً في التَّناقض بَيْنَ ما يقولون وما يفعلون، يطالبون بالموضوعيَّة ولا يمارسونها، ينظرون في الأخلاق ويبتعدون عنها

في الممارسة... والسَّبب في ذلك في حقيقة الأمر لا يعود إِلَى حبِّ الوقوع في التَّناقض وإنَّما إِلَىٰ التَّناقض الذي يعيشونه علىٰ الرَّغْمِ من إرادتهم، فهم فعلاً يسبقون الواقع في وعيهم وفهمهم، ولكنَّ الواقع أكبر منهم وأقوى، وروح الأمَّة، أو بنيتها الفكريَّة المتخلفة تعشش في عقولهم، وتسري في دمائهم. ولهٰذا ما يفرض عليهم أن يعيشوا من حَيْثُ لا يدرون هٰذا الضَّرب من فصام الشَّخصيَّة. وأيسر الأمثلة علىٰ وأقربها هو أنَّ الواحد منَّا ينظِّر ساعات في أهميَّة النَّظافة، وضرورتها، ولا يكاد ينتهي من تنظيره حَتَّىٰ يلقي بعقب السِّيجارة أو الورقة أو المنديل الورقي علىٰ الأرض من دون أن ينتبه إِلَى فعلته!!

هٰذا يفرض علينا توضيح أمرين هنا علىٰ الأقل أوَّلهما أنَّنا لا نسوغ التَّناقض، ولا ندعو إِلَىٰ قبوله، وإنَّما نحن نفهمه في سياقه المنطقي والتَّاريخي ونفسِّره. وينتج عن ذٰلك مباشرة أنَّنا لا نقبل بالاستكانة للواقع المتخم بالنَّقص والتَّشوه والخلل، ولا يجوز أن نقبل بذٰلك. ولكن من البداهة بمكانٍ أنَّ أولىٰ خطوات البناء هي دراسة الأرضيَّة الَّتي سيشاد عليها البناء ومعرفة قدرتها علىٰ الحمل والاحتمال والمقاومة. وثاني الأمرين أَنَّهُ لا يمكننا نفي إمكانيَّة أن يلعب الأفراد أدواراً متفاوتةً في صياغة أو تعديل البنية الفكريَّة للمجتمع أو الأمَّة، ولٰكن من هم هؤلاء الأفراد؟ وما خصائصهم؟ وما الذي يسمح لهم بذلك؟ وهل يحقُّ ذٰلك لأيِّ واحدٍ؟ وهل سيقبل المجتمع أو الأمَّة ذٰلك؟ وما المدىٰ الزَّمني الذي يحتاجونه لفعل ذٰلك؟ وما العناصر القابلة لهذه الصِّياغة أو التَّغيير أو التَّعديل؟؟ إنَّها مشكلةٌ أُخْرَى كبيرةٌ، رُبَّما تستحقُّ وقفةً خاصَّةً مطوَّلةً، ولكِنَّها علىٰ أيِّ حال لا تقدِّم ولا تؤخِّر كثيراً في مناقشتنا الآن.

الحقيقة التي لا بُدَّ من إقرارها هنا الآن وقبل الانتقال إلىٰ الفاعليَّة اللاشعوريَّة للأيديولوجيا في الذَّات بوصفها أيديولوجيَّة فرديَّة أو بوصفها بنية فكريَّة شخصيَّة... هو أنَّ التأثير اللاشعوري الذي تمارسة الأيديولوجيا بوصفها بنية تفكيرٍ جمعيٍّ، أي هويَّة جمعيَّة واجتماعيَّة وقوميَّة أو ما جرىٰ مجراها علىٰ نحو ما سبق إنَّمَا هي ممارسة ضروريَّة مهمة تحقِّق مجموعة من الوظائف والمهام من أبرزها:

أولاً: نقل الهويَّة الجمعيَّة من جيل إلىٰ جيلٍ بحواملها ومقوِّماتها الاجتماعيَّة والعرقيَّة والدِّينيَّة علىٰ شكل عادات وتقاليد وأعراق وقيم ثقافيَّة وأخلاقيَّة واجتماعيَّة ونفسيَّة وتربويَّة... مع تغيرات طفيفة في كل جيل تكون حصيلة فاعليَّة الجيل السابق.

ثانياً: هٰذه الفاعليَّة الأيديولوجيَّة تمارس تأثيرها في أفراد الجماعة علىٰ نحوٍ لاشعوريٍّ في نقل هويَّة الجماعة من جيلٍ إلىٰ جيلٍ تقوم بحفظ الهويَّة وحمايتها ورُبَّما تحصينها ضمناً كما سنبين في العناصر التَّالية.

ثالثاً: في الوقت ذاته فإنَّ هٰذه السُّلطة اللاشعوريَّة للأيدلولوجيا على أفراد الجماعة تقوم بتحقيق تماسك الجماعة والتحامها واتحادها حول مقومات وجودها المعنويَّة.

رابعاً: وفي سياق ذٰلك فإنَّ التَّأثير اللاشعوري للأيديولوجيا في أفراد الجامعة الحاملة لهٰذه الأيديولوجيا يقوم بوظيفة أخرىٰ هي تحقيق تمايز الجماعة عن غيرها من الجماعات واستقلالها عنها بمقوماتها المعنويَّة الأخلاقيَّة والاجتماعيَّة والتربويَّة وغيرها. وفي هٰذا ما يكشف لنا عن تمايز الجامعات التي تعيش في مجتمع واحد تحت أيِّ سقفٍ ومستوً... كاختلاف مجتمعين متجاورين أو جماعات ضمن مجتمعٍ واحدٍ.

خامساً: وفي إطار التَّمايز السَّابق تتحقَّق بفضل التَّأثير اللاشعوري للأيديولوجيا وظيفة أخرىٰ وهي إعطاء الجماعة خصوصيتها من خلال خصائصها التي تنقلها من جيلٍ إلىٰ جيلٍ وتحافظ عليها في إطار الجيل نفسه.

سادساً: الوظيفة السَّادسة للتَّأثير اللاشعوري للأيديولوجيا هي فرض الاندماج معها علىٰ أفرادها وتماهيهم معها ومع بعضهم بعضاً. إن سلطة الأيديولوجيا اللاشعوريَّة هنا هي بمثابة الخيط الذي يربط أفراد الجماعة ويربطهم بنسيج واحد، ليبدو الجميع علىٰ اختلافاتهم وفردياتهم كأنَّهُم نسيجٌ واحدٌ.

هٰذا لا يعني أنَّ السُّلطة اللاشعوريَّة للأيديولوجيا علىٰ مستوى العقل الجمعي كلها إيجابيات وضرورات. أبداً، فإنَّ السُّلطة اللاشعوريَّة للأيديولوجيا بقدر ما هي حامل لهويَّة الجماعة وتماسكها وخصوصيتها... فإنها تنقل بالطريقة ذاتها وبالقدرة ذاتها عيوب المجتمع من جيلٍ إلىٰ جيل أيضاً، وإن كان ذلكَ يكون أخطر ما يكون في حالة تخلف المجتمع فإنَّ السلطة اللاشعوريَّة للأيديولوجيا تمارس تأثيراً تكريسيًّا للتخلف يصعب علىٰ أبناء الجماعة وخاصَّة الرَّاغبين في التَّغيير تجاوزه، فإنَّهُم يلاقون عنتاً وصدوداً مدمراً في أغلب الأحيان وتنتهي محاولاتهم بمأساويَّة غالباً.

أما في المجتمعات المتقدِّمة المتحضِّرة فإنَّ عجلة النُّمو ومغرياته تكون أكبر بكثيرٍ من سلطة الأيديولوجيا الشُّعوريَّة واللاشعوريَّة عليها ولذٰلك يتمُّ تجاوز المعيقات بسهولةٍ أكبر بكثيرٍ عمَّا هي عليه الحال في المجتمعات المتخلفة.

ما زلنا في إطار التَّأثير اللاشعوري للأيديولوجيا في أفراد الجامعة بوصفها أيديولوجيا بنية اجتماعيَّة، أيديولوجيا جمعيَّة لا فرديَّة. وفي الإطار لا بُدَّ من الإشارة أيضاً إلىٰ مسألةٍ مهمَّةٍ أُخْرَى ختاميَّة وهي حيويَّة العقل الجمعي وتفاعله

مع التَّغيرات التي تطرأ من جيلٍ إلىٰ جيلٍ، فكلُّ جيلٍ يترك بصمةً في البنية الأيديولوجيَّة للجماعة من خلال المبدعين الكبار علٰى نحو الخصوص في مختلف الميادين، هم الذين يتركون بصمتهم في التَّغيُّر الاجتماعي والقيمي... ولكنَّ مهما بلغت الإضافات والبصمات فإنها تظل تدور في فلك العقل الجمعي أو الأيديولوجيَّة الجمعيَّة للجماعة، ولذلك تجد أخلاق العرب هي هي منذ مئات السنين، وأخلاق الأوروبيين هي هي منذ مئات السِّنين، وإنما تكون التَّغيرات الكبرى ظرفيَّة غالباً ما تتلاشىٰ مع الوقت لتتماهىٰ مع الأصل علىٰ نحوٍ ما.

لا تختلف سلطة الأيديولوجيا اللاشعوريَّة علىٰ الفرد عمَّا هي عليه في سطوتها اللاشعوريَّة علىٰ أفراد الجماعة بوصفها أيديولوجيا جمعيَّة، أو عقلاً جمعيًّا. بدل العقل الجمعي، بدل البنية الجمعيَّة ضع العقل الفردي أو الشخصي أو الذَّات، ويمكن تعميم ما سبق عليه من دون تردُّدٍ. ولٰكنَّنَا نعلم أنَّهُ كلَّما اتَّسع المفهوم ضاق الماصدق، وكلما ضاق المفهوم اتسع الماصدق. أعني ما هو قابل للتعميم علىٰ الجماعة أقلُّ تعقيداً وتنوعاً مما ينطبق علىٰ الفرد. ولـٰذلك من البداهة بمكان أن يكون الفرد أكثر تنوعاً وأكثر خصوصيَّة.

لنتذكر ما ذكرناه عن التَّأثير الشُّعوري للأيديولوجيا في الذَّات. لنسحب ذٰلكَ علىٰ التَّأثير اللاشعوري لها في الذَّات. هناك كانت الذَّات، كان الفرد بإرادةٍ وقرارٍ مسبَّقٍ يفهم الخارج والآخر بما ينسجم مع هويته الأيديولوجيَّة، هنا في التَّأثير اللاشعوري تتمُّ العمليَّة بآليَّة لاشعوريَّة لا الذَّات تعيها ولا هي تسيطر عليها.

إنَّ الذَّات من وعي ومن دون انتباه أو إدراك سيَّان تخضع لفاعليَّة الأيديولوجيا وسلطتها التي تمارسها علىٰ نحوٍ لاشعوريٍّ في الفهم والإدراك

والتَّفسير، ولذٰلك قلنا فيما سبق إنَّ التَّأثير الشُّعوري هو الأخطر من الناحية الأخلاقيَّة لأنَّ الفاعل يفعل ما يفعل من تحريفٍ وتزويرٍ بإرادةٍ وقرارٍ مسبَّقٍ، بينما التأثير اللاشعوري هو الأخطر من جهة الفاعليَّة والتأثير، يفهم الإنسان الموضوع علىٰ ضوء ما ينسجم مع عقيدته وأيديولوجيته من دون أن يدرك ذلكَ فيقع في وهم الصوابيَّة من دون أن يقبل الاعتراف بذٰلك لأنَّهُ علىٰ يقينٍ ضمنيٍّ بأنَّهُ فهم ما فهم وقبل ما قبل من دون تأثير خارجي فيما هو موهوم بقناعاته المسبقة التي تشكل بنيته الأيديولوجيَّة... وهنا الخطورة الكبرى والحقيقيَّة... والحقيقة الأخطر من ذٰلكَ أنَّهُ لا سبيل للخلاص من هٰذا الوهم.

الفصل السادس

الفرق بين الأيديولوجيا والعلم

المرمى العلمي موضوعي كوني أحادي المعنىٰ (ما يثبت معناه مهما اختلفت أشكاله): أنَّهُ يريد الوصول إلى الواقع في بناه وفي وظائفه، كما هو. والمرمىٰ الأيديولوجي يبين واقعاً علىٰ ما يُتمنَّى لو يكون، والأيديولوجيا تبين عن مرمىٰ معياري يزعم نفسه موضوعياً. ومن هنا كان الإيهام صفتها الجوهريَّة، إنها (رؤية) دلاليَّة معاً لحقيقة معينة لحالٍ واقع، وفي الوقت ذاته لقصد يضفي قيمة ولٰكنه يقلب الحقيقة.

جيرار بوي

سبق وبيَّنا المقصود بالأيديولوجيا، وَحَتَّىٰ نبيِّن الفرق بَيْنَها وبَيْنَ العلم لا بُدَّ أن نفصح عن المقصود بالعلم، والحق أن تعريف العلم مازال حَتَّىٰ الآن مثار خلافٍ وإشكالاتٍ عديدةٍ، ولن نخوض غمار تفاصيل هٰذه الخلافات، ونكتفي بأنْ نعرف العلم بأنَّهُ «معرفة الشَّيء علىٰ ما هو به»[٤٣] «وأصله أن يقال فيما يعرف وجوده وجنسه وكيفته وعلته»[٤٤] وبهذا التعريف نستطيع أن ندرج العلوم الاجتماعيَّة في ميدان العلم إلىٰ جانب العلوم الدقيقة الرياضيَّة والمنطقيَّة والعلوم التجريبية والطبيعة، علىٰ أنَّنَا لا بُدَّ أن نشير إلىٰ «أهم الخصائص التي يجب أن تتوافر في التفكير العلمي وهي:

٤٣ ـ أبو البقاء الكفوي: **الكليات**. وزارة الثقافة. دمشق ج٣. ١٩٨٢م. ٢٠٤.

٤٤ ـ م. س. ج٤. ص ٢٩٦.

١ ـ دقة المفاهيم الواردة في الصياغة العلميَّة

٢ ـ التَّعميم

٣ ـ إمكان اختبار الصدق

٤ ـ ثبات الصدق

٥ ـ البناء النسقي[٤٥].

ومن ذٰلك يبدو أنَّ ثَمَّة تقاطباً بَيْنَ العلم والأيديولوجيا، لهٰذا التَّقاطب تابع من أغراض كليهما ومراميه علىٰ أقلِّ تقديرٍ «فالمرمىٰ العلمي موضوعي كوني أحادي المعنى (ما يثبت معناه مهما اختلفت أشكاله): أنَّهُ يريد الوصول إلىٰ الواقع في بناه وفي وظائفه، كما هو. والمرمىٰ الأيديولوجي يبين واقعاً علىٰ ما يُتمنَّى لو يكون، والأيديولوجيا تبين عن مرمىٰ معياري يزعم نفسه موضوعيًّا. ومن هنا كان الإيهام صفتها الجوهريَّة، إنها (رؤية) دلاليَّة معاً لحقيقة معينة لحالٍ واقع، وفي الوقت ذاته لقصد يضفي قيمة ولكنه يقلب الحقيقة»[٤٦].

ولأن الأيديولوجيا تقترن في الأغلب الأعم بتزييف الوعي، وقراءة الواقع قراءة متفقة مع الأفكار المسبقة التي يعتنقها المرء فإننا نضيف لتوضيح الفرق بَيْنَ العلم والأيديولوجيا حدًّا جديداً هو «الواقع ـ الذي يفترض في العلم السعي إلىٰ بلوغه والتعبير عنه بقوانين، بَيْنَما يفترض في الأيديولوجيا تحريفه تبعاً لقيم معينة تودُّ لو تجدها مدمجة فيه»[٤٧].

---

٤٥ ـ صادق جلال العظم: **مناهج البحث في العلوم التجريبية**. مطبعة خالد بن الوليد. دمشق. ١٩٨١م. ص٦ ـ ١٧.

٤٦ ـ جيرار بوي: **العلم والأيديولوجيا**. ضمن كتاب **الأيديولوجيا في العالم المعاصر**. ترجمة صلاح الدين برمدا. وزارة الثقافة. دمشق. ١٩٨٣م. ص ٤٢.

٤٧ ـ م. س. ذاته.

وبهذا المعنىٰ يؤكِّد **باريون** أنَّ «الأيديولوجيا تقف حقًّا علىٰ أطراف النَّقيض من روح العلم، وعلىٰ أنَّ الأنظمة أو المذاهب التي تدعي امتلاك معرفة كليَّة ذات حقيقة مطلقة، يتعذر تأييدها العلمي، مثلما يمتنع دحضها من زاوية العلم، إنَّها ليست من ثمار العلم، بل هي محتويات إيمان تدعي لنفسها الحقيقة المطلقة»[٤٨].

كما يؤكِّد **ألتوسر** أيضاً أنَّ «نمط الإنتاج النظري للأيديولوجيا يختلف كل الاختلاف عن نمط الإنتاج النظري للعلم، وذٰلك يكون النمط الأول، لا يفعل حين يصوغ مسائله غير التعبير النظري عن الشروط التي لفقت لتكون مرآة نظريَّة وتسويغاً عمليًّا في وقت واحد. لأنَّ هٰذا الحل تفترضه سلطات ومقتضيات خارجة عن حدود النَّظر، أي تفرضه مصالح دينيَّة أو أخلاقيَّة أو سياسيَّة أو سواها»[٤٩].

كما ذكرنا من قبل في تحديد مفهوم العلم فإنَّ التَّعريف فيه ما يكفي لتوضيح المفهوم، ولكنَّ كثيراً من المعرَّفات لا يكتمل وضوحها من دون عرض خصائصها، بل قل لا تنفصل خصائص المعرَّف عن التَّعريف، فالخصائص جزءٌ من التَّعريف، ويصدق هٰذا علىٰ كثير من المعرفات، ومنها العلم، فتعريف العلم يكفي للوقوف على معناه، ولٰكنَّ الخصائص وإن ظهرت في التعريف فإن التفصيل فيها ضرورة في بعض الأحيان، لأنَّها تزيد في التَّحديد والضَّبط وتزيد في التَّوضيح.

---

٤٨ . ياكوب باريون: **ما هي الأيديولوجيا؟** . ص ٧٨.

٤٩ . لويس ألتوسر: **من رأس المال إلى فلسفة ماركس** . ضمن كتاب **قراءة رأس المال** . بإشراف لويس التوسر . ترجمة تيسير شيخ الأرض . وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٧٢م . ج١ . ص ٧٥.

كما قد يختلف التَّعريف في مفرداته وأولويَّاته من مُعرِّفٍ إلىٰ آخر، مع ضرورة الحفاظ علىٰ الوحدة المضمونيَّة والدلاليَّة، كذٰلك فإنَّ الخصائص يمكن أن تختلف من محدِّدٍ إلى آخر، ولكِنَّها يجب ضرورةً أن تكون دالَّة دلالةً صحيحةً وكافيةً. ولذٰلك، وبهٰذا المعنىٰ، فإنَّ ما سنحدِّده من خصائص العلم والأيديولوجيا بالمقارنة ليس إلا تعبيراً عن وجهة نظر يمكن أن يكون هناك غيرها.

سبق وتكلما في خصائص العلم منفردة لدىٰ سعينا لتحديد مفهوم العلم في فقرة سابقة، سنعيد بناء هذه الخصائص من جديد بالمقارنة مع الأيديولوجيا علىٰ اعتبارين ثلاث:

أولهما أنَّ خصائص العلم التي سبق وتحدثنا فيها شبه متوافق عليها إلىٰ درجة تقترب من الإجماع وإن اختلفت الأولويات والترتيب من باحث إلى آخر ويمكن أن تكون قاعدة انطلاق للمقارنة.

ثانيهما اعتبار كل منهما منظومة وإن كان هٰذا بالمجاز والتجاوز لا بالحقيقة فلا يمكن عدُّ الأيديولوجيا نسقاً معرفيًّا موازياً للعلم مثل الفن، الفن نسق معرفي يوازي نسق العلم المعرفي أما الأيديولوجيا فلا يصح فيها هٰذا الوصف وقد سبق وبيَّنا معنى الأيديولوجيا وانتهينا إلىٰ أنَّها بمعنىٰ من المعاني هي الفاعليَّة النفسيَّة لمكونات الذَّات المعرفيَّة في آليَّة تفكير هذه الذَّات وتحليلها وتدبيرها وتفاعلها مع ذاتها والآخر والخارج.

هٰذه الخصائص فيما سيلي خمسٌ قد تزيد أو تنقص تبعاً لوجهة الرأي والنظر وقد يتغير الترتيب أيضاً تبعاً لذٰلك. ولكنَّهَا مهما تباينت وجهات النظر فإنَّها ملزمة في النَّتيجة بالدوران حول هٰذه المحاور الخمس وتقديم خصائص العلم من خلالها، وما سنفعله بعد أن قدَّمناها فيما سبق خصائص للعلم أننا سنحدد

خصائص الأيديولوجيا أيضاً من خلالها بالمقارنة مع خصائص العلم، لنقر سلفاً بأنها خصائص العلم ونقارن خصائص العلم بالأيديولوجيا من خلال هٰذه الخصائص، أعني بذٰلك علىٰ نحو مباشرٍ وصريحٍ أنَّنا لو أردنا تحديد خصائص الأيديولوجيا في مبحث مستقلٍّ لوجدنا أنفسنا أمام خصائص مباينة لهٰذه الخصائص، أو رُبَّما لوجب علينا تقديمها من خلال خصائص مباينةٍ، أقول مباينة لا مختلفة ولا مخالفة لأنَّهُ ليس من الضَّروري أن تخالفها أو تختلف عنها، قد تكون في النَّتيجة هي ذاتها ولٰكنَّ نسقيَّة الرؤية والعرض والتحليل هي التي ستختلف... غالباً ستختلف.

أولاً: النسقية

النَّسقيَّة أولىٰ خصائص العلم وهي أنَّهُ يقوم تأسيساً علىٰ منظومة أوليَّات تنقسم غالباً إلىٰ قسمين أوَّلهما البداهات التي تتوافق عليها كل العلوم والمعارف، وثانيهما المسلمات أَو المصادرات التي يختص كلُّ علم علىٰ الأقلِّ بمنظومته الخاصَّة من هٰذه المسلمات، وعليهما تنبني القوانين الأوليَّة التي يتم بها برهان الفرضيات والوصول إلىٰ النَّتائج المتوخاة.

الأيديولوجيا في المقابل لا تقوم علىٰ منظومة أوَّليات وإنَّمَا تقوم علىٰ أساس أنَّ البنية الفكريَّة التي تحملها الذَّات هي ذاتها مجموعة مسلمات وبداهات يسلم بها صاحبها وعلى أساسها يقيس الخارج والآخر ويفهمه ويتعامل معه. ليست المعلومات التي تحملها الذَّات هي الأيديولوجيا وإنَّمَا بنية العقيدة التي تنصر فيها في الذَّات. ومن ثمَّ فإن البرهان والاستدلال يتم بقوانين تفرزها الأيديولوجيا علىٰ هيئة محاكماتٍ تبدو لصاحبها منطقيَّةً وبدهيَّةً، هي منسجمة مع البنية الأيديولوجيَّة للذات وحدها والذَّات التي تتفق معها غالباً لا دائماً.

ولذلك تبدو مضحكة في كثير من الأحيان لدى الآخرين، وكثيراً ما تثير العجب والدَّهشة لأنَّهَا قلَّما تكون متناسقةً ويزداد التناسق وينقص بقدر منطقيَّة الأيديولوجيا ذاتها التي يحملها المرء.

ثانياً: الإلزامية

ثاني ما يتميَّز به العلم من خصائص أنَّ نتائجه ملزمةٌ للعقول جميعاً بقوَّة الإلزام ذاتها. ويكون ذلك تامًّا غير مشروطٍ إذا تمَّ التَّسليم بنسق المسلمات، أي يفقد الإلزام سلطته إذا تمَّ رفض نسق المسلمات. ولكن لا يجوز أن يكون الرَّفض من أجل الرَّفض والعبث، لأنَّ مسلمات العلوم عامَّة لها من قوَّة الإلزام ما يفرض على رافضها تقديم البديل الذي يمكن التَّسليم به بما يمتلكه من تماسك وقوَّة وكفاية، وإلا فإنَّ الرَّفض مرفوضٌ. إلاَّ في حضرة الأيديولوجيا فإنَّ كلَّ شيءٍ يكون ممكناً ومقبولاً بل ومعقولاً... ولكن عند صاحبه.

لنتذكر قصَّة **إبراهيم** عليه السَّلام إذ سأله قومه:

. لماذا حطَّمت آلهتنا؟

فقال: اسألوا كبيرهم، كبيرهم هو الذي حطَّمهم.

قالوا: أمجنونٌ أنت؟! إنَّهُ خشب ولا يمكن أن يفعل شيئاً.

قال: فكيف تعبدوا خشباً لا يستطيع أن يفعل شيئاً؟!

فماذا قالوا؟ قال اقتلوه أو احرقوه.

أرأيت كيف أنَّهُ ألزمهم أن يدحضوا بأنفسهم مزاعمهم ولكنَّهُم انقلبوا على المنطق الذي ناقشوا به لأنَّهُ قادهم إلى ما هو ضدَّ أيديولوجيتهم التي لا يريدون تغييرها.

إذا كان يمتلك العلم قدرةً إلزاميَّةً للعقول جميعاً علىٰ نحو ما أسلفنا فإنَّ الأيديولوجيا لا تمتلك أكثر من إقناع صاحبها ومن حمل الأيديولوجيا ذاتها بالطَّريقة ذاتها. فإذا تمكَّن المرء بالخطاب الأيديولوجي أن يقنع الآخر فإنَّمَا يكون ذٰلك إمَّا لمنطقيَّة الطَّرح والتَّقديم التي تكون أو تقترب من العلميَّة أو لأنَّ الطَّرف الآخر ضعيفٌ أو قابلٌ.

ثالثاً: التراكم العمودي

من نتائج الخاصتين السَّابقتين خصيصةٌ جديدةٌ، وهي أنَّ العلم يقوم علىٰ التَّراكميَّة العموديَّة أَو الامتداد الخطِّي المباشر الذي ينبني فيه الجديد علىٰ القديم بالضَّرورة، ولا يمكن للجديد أن يكون من دون أن يكون القديم قد كان.

أمَّا الأيديولوجيا فإنْ كان من الضَّروري القول بتراكميَّةٍ فيها فإنَّهَا أبعد ما تكون عن التَّراكميَّة العمويَّة المتحقِّقة في العلم، وتقترب بحالٍ من الأحوال من تراكميَّة الفنِّ أي التَّراكميَّة الأفقيَّة، التَّجاوريَّة. ومع ذٰلكَ فهي ليست تراكميَّةً أفقيَّةً ولا عموديَّةً. إنَّهَا بؤَرِيَّةٌ استقطابيَّةٌ. الأيديولوجيا في أصلها وطبيعة فكرة مركزيَّة تقوم الذَّات بمحورة العالم حولها. المعلومات والمعارف في الأيديولوجيا ليست سوى أدوات لتعزيز البؤرة، الفكرة المركزيَّة التي تعتنقها الذَّات.

وأمَّا قولنا باقترابها من التراكميَّة الأفقيَّة علىٰ غرار الفن فلأنَّ لكلِّ ذاتها طريقتها في تبئير فكرتها المركزيَّة ولذٰلك تجد الاختلاف والتَّباين في المنهج والرُّؤية وطريقة التَّفكير أيديولوجيًّا بَيْنَ أبناء الأيديولوجيا الواحدة. وبهٰذا المعنىٰ فإنَّ العلماء عندما يكونون ذواتاً أيديولوجيَّة فإنَّهَم بمنهجيَّة تفكيرهم وتدبيرهم يعلمون علىٰ أساس التبئير ومركزة المادة المعرفيَّة حول بؤرته، أي أيديولوجيته.

رابعاً: التتابعية

يلزم عن الخاصَّة السَّابقة خصيصةٌ أخرىٰ بل خصيصتان بالتَّتالي، أولاهما هي الرَّابعة ترتيباً أي هٰذه، وهي أنَّ كلَّ لاحقٍ في العلم مبني علىٰ ما سبقه إنجازاً وتعلماً؛ فلا يمكن أن ننجز في العلم جديداً ما لم نهضم أَو نستوعب أَو نفهم ما سبق من قوانين وقواعد ونظريَّات. ولا يمكن تعلم النظريَّة الجديدة أَو رُبَّما فهمها من دون تعلم وفهم ما سبقها من نظريَّات في العلم ذاته.

لا شكَّ في أنَّ الأيديولوجيا تنطوي علىٰ تتابعيَّةٍ تعاقبيَّةٍ مماثلةٍ في المبدأ للتَّتابعيَّة في العلم ولٰكنَّهَا تفترق عنها افتراقاً نوعيًّا وحَتَّىٰ كليًّا. الحقيقة التي يجب أن تكون واضحةً هي أنَّ الأيديولوجيا خلاف العلم في أشياء كثيرةٍ جدًّا ونوعيَّة إلىٰ حدٍّ تفاصليٍّ حاسمٍ ففي حين اتِّسام العلم بمعنى العلوم وبمعنىٰ كلِّ علمٍ ضمن ميادينه بالغنىٰ الهائل فإنَّ الأيديولوجيا يمكن أن تُرَدَّ إلىٰ محاور قليلةٍ جدًّا تلتف حولها أو تنبثق منها الأفكار المركزيَّة المكونة للأيديولوجيا. الأيديولوجيات وإن تتعدَّدت وتنوعت مظاهرها إلىٰ أنَّها ترتد في حقيقة الأمر إلىٰ بضع محاور قليلةٍ، تحتاج الذَّات فيها إلىٰ تتابعيَّة فكرتها المركزيَّة ولٰكنَّهَا ليست قائمة بالضَّرورة عليها وعلىٰ ضرورة فهمها علىٰ غرار العلم.

تحتاج الذَّات في حال كونها بنية أيديولوجيَّة إلىٰ فهم فكرتها المركزيَّة لا أكثر ولا تحتاج إلىٰ تتابعيتها التَّاريخيَّة بحالٍ من الأحوال، وتستطيع فهم ما تريد مهما كانت الفجوات التي تفصلها عن أوَّل ظهورٍ للفكرة المركزيَّة التي تحملها. العلاقة بَيْنَ الذَّات وفكرتها المركزيَّة علاقة انتماء وهوًى لا علاقة عالم أو ذات بمنظومة علميَّة.

خامساً: الجدة والأصالة

آخر الخصائص، هنا، وهي نتيجةٌ لازمةٌ عن كلِّ ما سبق، مع ما تتسم به من استقلاليَّة في إطار كونها من خصائص العلم، وهي أنَّ ما لا يأتي به هٰذا العالم أَو ذاك من اكتشاف أَو اختراع سيأتي بالضرورة من يقوم عوضاً عنه بهٰذا العمل أَو الإنجاز، فلو لم يكتشف **ابن زهر** الدورة الدَّمويَّة لاكتشفها طبيبٌ يأتي من بعده، ولم يكتشف **نيوتن** قانون الجاذبيَّة لاكتشفه عالم يأتي بعده، ولو لم يضع **نيلز بور** الفيزياء الكموميَّة لوضعها غيره... وهٰكذا في كلِّ المنجزات العلميَّة. قد يتأخر الاكتشاف أَو الاختراع وقد لا يتأخر، ولٰكنَّهُ لا بُدَّ سيأتي لأنَّ سيرورة العلم ستقود إليه بالضَّرورة، وإلا توقف العلم في ميدانه عنده.

أين تقف الأيديولوجيا من هٰذه الخصيصة؟

الحقيقة أنَّ الأيديولوجيا لا تتسم بأيِّ خصيصة مقابلةٍ لهذه الخصيصة ذٰلكَ أنَّها وإن بالأصل كما أشرنا محض فكرة تمحور حولها معطيات العلوم ونتاجات المعرفة الإنسانيَّة. يمكن القول بمعنًىٰ من المعاني إنَّ الأفكار المركزيَّة للأيديولوجيا وجدت منذ القدم ولم تتغيَّر وإنَّمَا تغيَّر ما بَيْنَ دفتيها من تطورات العلوم والمعارف عبر التاريخ، أما هي بذاتها فلم تتغيَّر، لنأخذ الإيمان بالله علىٰ سبيل المثال فكرة الإيمان بالله هي هي لم تتغير علىٰ مرِّ آلاف السِّنين من عمر الإنسان، وعلىٰ مرِّ ملايين الكتب عليها. وكذٰلكَ أمر أيِّ فكرةٍ أيديولوجيَّة أُخْرَىٰ... الأفكار التي تكوِّن محاور الأيديولوجيات محدودة وقليلة في نظري علىٰ الرَّغْمِ من تباين الأشخاص والخصوصيات تبايناً قد يصل إلىٰ حدِّ عدد البشر منذ وجد الإنسان وإلىٰ الآن.

خاتمة

هٰذه أبرز الخصائص المقارنة بَيْنَ العلم والأيديولوجيا التي حاولنا من خلالها سبر أغوار الفروق بينهما من وجهة نظرنا. ولكِنَّها كما أشرنا ونكرِّر ليست الوحيدة، وليست نسخة نهائيَّة غير قابلة للتعديل أَو التبديل، بما يعني أنَّهُ لم ولن تنتهي الفروقات بَيْنَ العلم والأيديولوجيا هاهنا فبكلِّ تأكيد يمكن أن نجد فروقات أخرىٰ رُبَّما بعضها يكون أكثر أهميَّة مما لم ننتبه إليه بسبب اتخاذنا سبيلاً محدداً لتبيان الفرق بَيْنَ العلم والأيديولوجيا.

الفصل السابع

العلاقة بين الأيديولوجيا والعلم

لمـا كـان موضـوع العلـوم الاجتماعيَّـة الإنسان في فاعلياته التي لا تحصىٰ، ولما كانت معدة من قبل الإنسان بفاعلياته المعرفيَّة، تجد نفسها وقد وضعت في هٰذا الموضع الخاص، موضع توقفها علىٰ الإنسان بوصفه في آن واحدٍ ذاتاً وموضوعاً، مما يثير سلسلة من المسائل الخاصة الصعبة، وهٰذا أمر مسلم به

جان بياجه

إنَّ التَّقاطب بَيْنَ الأيديولوجيا والعلم لا يعدو كونه تقاطباً في الغايات والأهداف وحسب، بل تبين أنَّ ثَمَّة تداخلاً وتلازماً بَيْنَ العلم والأيديولوجيا وهٰذا التَّداخل والتَّلازم علىٰ درجةٍ من التَّعقيد بحيث لا يمكن الحديث عنه علىٰ نحوٍ واحدٍ، كما لا يمكن حصره في إطار علاقةٍ واحدةٍ أو حَتَّىٰ مستوً متوازٍ من العلاقات، وبهٰذا المعنىٰ يمكننا الحديث عن علاقات قد تبدو متناقضة، فنقول إن العلم يحتاج للأيديولوجيا، والأيديولوجيا تحتاج للعلم، وأنَّ الأيديولوجيا تعرقل العلم وتحفزه في آنٍ معاً.

أولاً: تلازم العلاقة

يرىٰ **ماكس فيبر** (١٨٦٤م - ١٩٢٠م) أنَّ الشَّيء الموضوعي العلمي هو ما كان خالياً من التَّقويم ومن أيِّ أثرٍ أيديولوجيٍّ، والحقُّ أنَّ هٰذا القول لا اختلاف فيه البتة، ولٰكِنَّهُ بهٰذا التَّشديد يكاد يقصي الموضوعيَّة عن جل العلوم

المعروفة، ولاسيَّما العلوم الاجتماعيَّة علىٰ وجه التَّخصيص، ولإدراكه هٰذه الحقيقة فقد بذل جهوداً كثيرةً وكبيرةً لإقامة العلم علىٰ أسس قويمةٍ محصَّنةٍ من تداخلات القيم الشَّخصيَّة للباحث، ولٰكِنَّهُ علىٰ الرَّغْمِ من ذٰلك فقد «بقي مضطراً إلىٰ الاعتراف بالدَّور الثَّابت الذي لا بُدَّ أن تمارسه قيم الباحث وافتراضاته المسبَّقة، ليس في تحديد مبدأ انتقاء مادة دراسته وحسب، بل وفي تعيين الوجهة التي يمضي نحوها عمله»[٥٠] وليس ذٰلكَ فحسب، بل «إنَّ **مانهايم** يصل إلىٰ حدِّ القول بأنَّ الأفكار في العلوم التي تدرس الإنسان تكاد تمسي وظيفة أو دالة لمن يعتنقها، ولوضعه في وسط اجتماعي»[٥١].

إنَّ هٰذا التَّلازم الوثيق بَيْنَ البحث العلمي والخلفيَّة الأيديولوجيَّة يرجع في واقع الأمر إلىٰ آليَّة التأثير الأيديولوجي في الباحث، بشقيها الشُّعوري واللاشعوري، هٰذه الآليَّة التي بيَّناها قبل قليل، والتي تقودنا بالضَّرورة إلىٰ عدم خلوِّ أيِّ علمٍ من رؤية أيديولوجيَّة وتطلع إلىٰ احتواء هٰذا العلم ضمن المنظومة الأيديولوجيَّة التي يعتنقها الباحث، سيَّان أكان ذٰلك من خلال فهم معطيات هٰذا العلم فهماً أيديولوجيًّا، أم محاولة توجيه دفته بما يخدم مصالح أيديولوجيته، أو متابعة البحث العلمي انطلاقاً من الأفكار المسبقة «والبحث النَّظري الذي صاغ أهدافه بواسطة بعض التَّصورات النَّظريَّة يكتسبها بذٰلك بعداً أيديولوجياً هٰذا علىٰ رغم تحديده لواجبه علىٰ أَنَّهُ التَّحرر من كلِّ (ثقل أيديولوجي)»[٥٢].

---

٥٠ . صلاح قنصوه: **الموضوعية في العلوم الإنسانية** . دار التنوير . بيروت ط٢ . ١٩٨٤م . ص ١٨٦ .

٥١ . م. س . ص ٦ .

٥٢ . م. أندريفا: **الدور المنهجي للنظرية في مختلف مراحل البحث الاجتماعي** . مجلة الفكر العربي . العدد /٦/ . ١٩٧٨م . ص ١١٥ .

وهٰذا ليس في العلوم الإنسانيَّة وحدها، بل حَتَّىٰ في العلوم الطبيعيَّة «فالعالم الطبيعي يعمل باليد ما تبقىٰ من تصورات، في معظمها نتاج لفكر سالفه... فلكل تجربة مهما كانت بسيطة، تفسير يمكن علىٰ الأقل وضعه في إطار أي تصوير نظري سالف»[٥٣].

ومن خلال ذٰلك يتبيَّن لنا أنَّ العلاقة بَيْنَ العلم والأيديولوجيا متلازمة بوثاقة غير منفكَّة، علىٰ رغم قيام تعارض حادٍّ بَيْنَ مرامي وأغراض كلٍّ منهما، حَتَّىٰ لنستطيع القول إنَّ العلم والأيديولوجيا كليهما يكاد يكون صورة للآخر، وإن نَدَّ العلمُ الطَّبيعي بعض الشَّيء عن هٰذا الحكم إلا أنَّهُ لن يستطيع البتة الخروج عنه علىٰ نحوٍ كاملٍ تامٍّ، وسيظلُّ حتماً أحد ميادين الممارسة الأيديولوجيَّة شاء أم أبىٰ، وهٰذا ما سنعرض له ونبينه بعد قليل.

ثانياً: منطلق العلاقة

ولٰكن ما الأساس الذي يرتكز عليه هٰذا التَّلازم الوثيق بَيْنَ العلم والأيديولوجيا؟

لا شكَّ في أنَّ هٰذا الأساس يرتد بصورةٍ مباشرةٍ إلىٰ العلاقة الماثلة بَيْنَ الذَّات والموضوع، في العمليَّة المعرفيَّة، حيث الذَّات هي العارف، والموضوع هو المعروف، وبنظرة استشرافيَّة أوليَّة يتجلى لنا بوضوح أنَّهُ كلما كان الموضوع مستقلاً عن الذَّات أكثر دنا من الموضوعيَّة والعلميَّة أكثر، أو لنقل بصورةٍ أُخْرَىٰ: كلَّما كان موضوع المعرفة مستقلاً عن الذَّات العارفة، كان بمأمنٍ أكثر من تأثيرات الذَّات وتداخلاتها بمختلف صورها وأشكالها.

٥٣. م. س. ص ١١٤.

آ . وهنا نجدنا أمام ضربين من المعرفة العلميَّة، هما اللذان دَرَجَ الباحثون علىٰ تسميتهما بالعلوم الطبيعيَّة والعلوم الاجتماعيَّة أو الإنسانيَّة، وقد أكَّدت العلوم الطبيعيَّة عَبْرَ مسيرتها الطويلة استقلاليتها شبه الكليَّة عن الذَّات العارفة بحيث لا نكاد نجد أيَّ أثرٍ واضحٍ لتدخُّل الباحث أو الذَّات العارفة في سير المعرفة العلميَّة، أو حَتَّىٰ فهمها بعيداً عن دلالاتها المتضمنة فيها، إن الذَّات هنا «تقيس وتحسب وتستنتج علىٰ نحوٍ يمكن لكلِّ إنسانٍ التَّحقق منه، والتي تكون بالتَّالي فاعليتها الايبستيميَّة مشتركة بَيْنَ الذَّوات كلِّها، حَتَّىٰ إن استبدلنا بهذه الذوات آلات (إلكترونيَّة) أو (سيبرنطيقيَّة) زودت مسبقاً بمنطق وعلم رياضيات مشاكلين للمنطق وعلم الرياضيات اللذين تعتمدهما الأدمغة البشريَّة... وتاريخ الفيزياء كله هو تاريخ انفتاح أنقصَ إلىٰ أقلِّ حدٍّ التَّشويهات الراجعة إلىٰ الذَّات المتمركزة في ذاتها كي يخضع إلىٰ أقصى حدٍّ لقوانين الذَّات الإبستيميَّة، ومعنىٰ هٰذا أنَّ الموضوعيَّة قد غدت ممكنةً، وأنَّ الموضوع قد جُعِلَ مستقلاً استقلالاً نسبياً عن الذوات»[٥٤].

ولقد بات من الواضح جدًّا أنَّ أهمَّ المقاييس التي يعول عليها للوقوف علىٰ مدىٰ استقلال الموضوع عن الذَّات العارفة، وبالتالي مدىٰ موضوعيَّة وعلميَّة المعرفة. هو قدرة المبحث العلمي علىٰ تقمُّص الطَّريقة الرياضيَّة والتَّعامل بلغةِ الكم أو الأرقام، ولذٰلك سعىٰ الكثير من الباحثين بجهودٍ حثيثةٍ إلىٰ صياغة علومهم صياغةً كميَّةً وإدماجها في صلب الطَّريقة الرياضيَّة، إلا أنَّ هٰذه

٥٤ . جان بياجه: **وضع علوم الإنسان في منظومة العلوم** . ترجمة الدكتور أسعد عربي درقاوي . ضمن كتاب **الاتجاهات الرئيسية للبحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية** . وزارة التعليم العالي . دمشق . ١٩٧٦م . ج١ . ص ٩٠.

الجهود لم تثمر إلا في ميادين العلوم الطبيعيَّة التي هي بالأصل مشتقة من الذَّات العارفة.

وعلىٰ رغم هٰذه الاستقلاليَّة للعلوم الطبيعيَّة من الذَّات العارفة، وعلىٰ رغم خضوع ظواهرها للتَّجريب وإعادة التَّجريب مرَّات متكرِّرة ضمن ظروف وشروط تكاد تكون متماثلة، بعيدةً كلَّ البعد عن الأهواء الأيديولوجيَّة، فإن معظمها لا يزال عرضةً لميول الباحث واعتقاداته إلىٰ حدٍّ ما، ولَعَلَّ أكثرها طواعيَّة للهوىٰ الأيديولوجي علم الحياة بمختلف فروعه، ثُمَّ علم الفلك والكيمياء، وحَتَّىٰ الفيزياء، ولاسيَّما مع تعاظم إنجازاتها وتشعب اختصاصاتها، ولذٰلك فإنَّنا لا نعدم حَتَّىٰ الآن من تفسيراتٍ كثيرةٍ لكثير من ظواهر ضروب العلم الطبيعي، مرتبطة بحوامل أيديولوجيَّة معيَّنة.

ولو عدنا إلىٰ الوراء قليلاً لوجدنا الأمر متجليًّا علىٰ نحوٍ واضحٍ، فلقد كتب **لينين** قائلاً: لقد «فرضت الفيزياء الجديدة في المثاليَّة لأن الفيزيائيين بشكلٍ رئيسيٍّ، وبالتَّحديد، لم يكونوا ليعرفوا بالجدل (Dialectic)»[٥٥] ليؤكِّد لنا من خلال ذٰلك أنَّهُ لم يجد ما يصبو إليه لتدعيم أيديولوجيته في الفيزياء الحديثة.

ولقد كتب **إنجلز** فيما قبل محاولاً إظهار منهجه وأيديولوجيته علىٰ أنَّهَا الأصلح والأقدر علىٰ رؤية الواقع رؤية علميَّة موضوعيَّة: «الجدل (Dialectic) تحديداً هو الذي يمثل الشكل الأكثر أهميَّة بالنسبة إلىٰ المعارف الطبيعيَّة المعاصرة، فهو . أي الجدل . فقط النظير (Analogl) ولهذا فهو الطريقة لتفسير عمليات

٥٥ . إ. ي. إيليين: **البحث العلمي والصراع الفلسفي في البيولوجيا** . ترجمة محمد أحمد شومان . دار الفارابي . بيروت . ط١ . ١٩٨٤ . ص ٢٠.

التطور الجارية في الطبيعة وعلاقاتها العامة، ولتفسير الانتقالات من مجال بحث إلىٰ مجال بحثٍ آخر»[٥٦] وانطلاقاً من هٰذه الرؤية ذاتها قرأ **إنجلز** ظواهر علم الحياة وفسرها بمنطقه الجدلي بما يتَّفق وأيديولوجيته الماديَّة التاريخيَّة . الطَّبيعيَّة، وقد توصل بهٰذا الصَّدد إلىٰ «الاستنتاج بأنَّ الحياة لا بدُّ أن تتعلق بوثوق بالبروتينات الموجودة علىٰ هيئة (الجبلة . (protoplasm)، ولذا فقد عرض **إنجلز** علم الأحياء علىٰ أنَّهُ كيمياء البروتينات، معبِّراً بميله هٰذا عن فكرة انتقال أحد هٰذين العلمين إلىٰ الآخر، وبالتَّالي انتقال أحد أشكال حركة المادة إلىٰ شكلٍ آخر»[٥٧].

ويبدو البعد الأيديولوجي واضحاً جليًّا في هٰذه القراءة لعلم الأحياء، ولأنَّ هٰذا العلم هو الأكثر طواعِيَةً للميل والهوىٰ الأيديولوجي فقد كان تربة خصبة لممارسات الأيديولوجيا المختلفة، وانطلاقاً من ذٰلك جاء **إ. ي. إيليين** أحد الماركسيين المعاصرين ليقدِّم لنا قراءة ماركسيَّة لعلم الأحياء، فيقول في كتابه (البحث العلمي والصِّراع الفلسفي في البيولوجيا . علم الأحياء): وفي واقع الأمر فإنَّ تاريخ علم الأحياء في العقود الأخيرة كان شاهداً علىٰ محاولاتٍ عديدةٍ لبعث المدارس المثاليَّة وأشباه المدارس في إطار علم الأحياء نفسه تحت لافتات جديدة، غير أن الماديَّة التاريخيَّة . الطبيعيَّة . تقف حجر عثرة في وجه محاولات إنشاء مدرسة (علم أحياء) مثاليَّة ذات تأثير ولو ضئيل، مستخدمةً في ذٰلك عربدة بعض علماء الحياء المثاليين»[٥٨].

---

٥٦ . م. س . ١٧.

٥٧ . م. س . ٣٢.

٥٨ . م. س . ص٣٧.

ب ـ قلنا إنَّ التَّجريب واحدٌ من العوامل الأساسيَّة التي توفر مناخاً ملائماً للموضوعيَّة في العلوم الطبيعيَّة، من حيث إمكانيَّة إعادة التجربة ضمن ظروف تكاد تكون متماثلة تفرض ذاتها على الذَّات العارفة أيًّا كان انتماؤها الأيديولوجي، والحق أنَّ التَّجربة وإعادتها مرَّةً فأخرىٰ يقتضي عزل الواقعة المبحوثة عن جملةٍ من الشُّروط المرافقة التي نعدها في البحث ثانويَّةً، هٰذا إلىٰ جانب إمكانيَّة التَّحكم بشروط التَّجربة، ولٰكن ينبغي ألا ننسى هنا «أنَّ عزلنا لهذا الجانب ـ الواقعة ـ هو عزلٌ مشروطٌ إذ إنَّهُ ليس كذٰلك في الواقع»[٥٩].

ولعَلَّ في هٰذا ما يمكن أن نعده ثغرةً تنفذ منها الأيديولوجيا ـ ضمن حدود معيَّنة ـ ذٰلك أن إعادة أحداث الواقعة مخبريًّا بشروط مماثلة تماماً للشروط الواقعيَّة التي حدثت وتحدث فيها، أمرٌ مستحيل تماماً، علىٰ الأقل في أفق الإمكانيات العلميَّة القائمة والمتاحة حالياً.

وإذا كانت «إعادة إنتاج أيِّ جانبٍ من الحقيقة المزمع بحثها بشكل معزول أمراً مقبولاً في العلوم الطبيعيَّة ـ فإن ـ خاصيَّة البحث الاجتماعي تكمن في استحالة عزل أيَّة حقيقة، أو أي جانب من جوانبها من دون المخاطرة باقتلاع هٰذه الحقيقة من الظاهرة الاجتماعيَّة عن مجمل الظواهر الأخرى»[٦٠]، «ذلك أنَّ العلوم الإنسانيَّة ـ الاجتماعيَّة ـ لما كان موضوعها الإنسان في فاعلياته التي لا تحصى، ولما كانت معدة من قبل الإنسان بفاعلياته المعرفيَّة، تجد نفسها وقد وضعت في هٰذا الموضع الخاص، موضع توقفها علىٰ الإنسان بوصفه في آن واحد

٥٩ ـ م. أندريفا: **الدور المنهجي للنظرية في مختلف مراحل البحث الاجتماعي**. ص ١١٦.

٦٠ ـ م. س. ذاته.

ذاتاً وموضوعاً، مما يثير سلسلة من المسائل الخاصَّة الصَّعبة، وهٰذا أمرٌ مسلَّمٌ به»[٦١].

ولعَلَّ أبرز هٰذه الصُّعوبات وأكثرها أهميَّة هي التي تتجلىٰ في عدم مقارنة اليقين والموضوعيَّة، والانفتاح الكبير أمام الممارسة الأيديولوجيَّة، ذٰلك أنَّ الاندماج بَيْنَ الذَّات العارفة وموضوع المعرفة، بَيْنَ العارف والمعروف، يعني طواعية موضوع المعرفة ومرونته الكبيرة أمام تأثيرات الذَّات العارفة، وقابليته للانقياد السهل أمام هٰذه الذَّات التي ستفرض عليه توجهاتها وميولها الأيديولوجيَّة بصورةٍ أو بأُخْرَىٰ.

إنَّ معاناة العلوم الإنسانيَّة علىٰ هٰذا الصعيد معاناةٌ مزدوجةٌ، فهي بقدر ما تعاني من انفتاحٍ وتخلخلٍ أمام الأهواء الأيديولوجيَّة، تعاني أيضاً من انغلاق ـ بقدر ـ أمام الموضوعيَّة، أو لنقل إن المعاناة الثانية تتمثَّل بصعوبةٍ الانفتاح أمام الموضوعيَّة «وذٰلك لسببين كلاهما منهجيٌّ إلىٰ حدٍّ ما، الأول هو أن الحدَّ الفاصل بَيْنَ الذَّات المتمركزة في ذاتها والذَّات الايبسيميَّة يقلُّ وضوحه بمقدار ما ينخرط أنا الملاحظ في الظواهر التي يجب أن يكون قادراً على دراستها في الخارج، والثاني هو أن الملاحظ يحمل بمقدار ما يكون «معنياً» وبمقدار ما ينسب قيماً إلىٰ الوقائع التي تهمه، على الاعتقاد بأنه يعرفها معرفة حدسيَّة ويقل بقدر ذٰلك إحساسه بضرورة التقنيات الموضوعيَّة»[٦٢].

هٰذا الجانب الأول من الصُّعوبات التي تعرقل انفتاح العلوم الإنسانيَّة علىٰ الموضوعيَّة وتيسر هٰذا الانفتاح أمام التأثيرات الأيديولوجيَّة، وقد سميناه الجانب

٦١ ـ جان بياجه: **وضع علوم الإنسان في منظومة العلوم**. ص ٨٩.

٦٢ ـ م. س. ص ٩١.

المنهجي، ولكنْ ثَمَّة جانب آخر من الصُّعوبات هو ما يمكن أن تسميه الجانب التَّجريبي، وقد أشرنا قبل قليل إلىٰ أن التجريب في العلوم الطبيعيَّة أمر يسير وسهلٌ، وإن وجد أمامه من صعوبات فهي صعوبات تقنيَّة لا أكثر، أما وضع «علوم الإنسان فهو أكثر تعقيداً بكثير، لأنَّ الشَّخص الذي يلاحظ ذاته أو يجري تجارب عليها، أو علىٰ الآخرين يمكن، من جهة، أن تغيره الظواهر الملاحظة، أو أن يكون من جهة أخرىٰ، منبعاً لتغيرات تطرأ علىٰ هٰذه الظواهر من حيث انبساطها وطبيعتها بالذَّات، وتبعاً لمثل هذه الأوضاع، إنما يخلق كون المرء في آن واحد ذاتاً وموضوعاً»[٦٣].

والحق أن «صعوبات التَّجريب هٰذه ليست خاصَّةً . فقط . بعلوم الإنسان. ولا تنجم كلها عن كون موضوع الدراسات هو أن جماعة الملاحظ جزء مكمل لها، أو يمكن أن يكون كذلك، الصعوبة أولاً هي من طراز آخر أعم وسببها استحالة التأثير من موضوعات الملاحظة كما تريد عندما تكون هذه الموضوعات قائمة في سلالم أعلىٰ من الفعل الفردي»[٦٤].

خاتمة

ما تحدثنا في هو العلاقة بَيْنَ العلم والأيديولوجيا بعدما تحدثنا في آليَّة التأثير ونوعيها الشعوري واللاشعوري. إننا نزيد في تحديد أبعاد العلاقة بَيْنَ العلم والأيديولوجيا من مختلف الجوانب والزاويا كيما تكون الرؤية في الختام متكاملة أكثر ما يمكن من التكامل وأشده. وعلىٰ هٰذا الأساس ستكون متابعتنا الكلام في العلاقة بَيْنَ العلم والأيديولوجيا إذ سننتقل الآن إلىٰ طبيعة التَّأثير المتبادل

٦٣ . م. س . ص ٩٠ . ٩١.

٦٤ . م. س . ص ١٠٤.

بينهما. تكلمنا فيما سبق علىٰ آليَّة التأثير، وفيما سيأتي سيكون الكلام علىٰ طبيعة هٰذا التَّأثير من خلال حاجة الأيديولوجيا للعلم وحاجة العلم للأيديولوجيا وطبيعة الأثر الذي تمارسه الأيديولوجيا في العلم.

يرىٰ كثيرون أن الأيديولوجيا هي التي تؤثر في العلم والعلم لا يؤثر في الأيديولوجيا. فما مدىٰ صحَّة ذلكَ؟

وفي الوقت ذاته يرىٰ كثيرون أيضاً أنَّ الأيديولوجيا هي فقط التي تحتاج إلىٰ العلم فيما العلم لا يحتاج إلىٰ الأيديولوجيا. فما مدىٰ صحَّة ذٰلكَ؟

الفَصْلُ الثَّامِن

الأيديولوجيا تعرقل العلم

إنَّ النَّظر إلىٰ رغباتنا علىٰ أنَّهَا حقائق هو كنه المسعى الأيديولوجي، فالأيديولوجيا أيًّا كانت تضعنا في عالمٍ أمينٍ أخلاقيًّا مريحٍ عقليًّا حيث تصرفاتنا مبررة ورغباتنا مسوغة.

جان . وليام . لابيير

انتهينا قبل قليل إلىٰ أنَّ الكثيرين يرون أنَّ الأيديولوجيا هي فقط التي تحتاج إلىٰ العلم فيما العلم لا يحتاج إلىٰ الأيديولوجيا. وأنَّ الكثيرون في الوقت ذاته يرون أنَّ الأيديولوجيا هي التي تؤثِّر في العلم والعلم لا يؤثر في الأيديولوجيا.

بعد ما تحدثنا في من علاقة بَيْنَ العلم والأيديولوجيا والفرق بَيْنَهُما بعدما تحدثنا في آليَّة التأثير ونوعيها الشعوري واللاشعوري. نتساءل ما صحة هذه الاعتقادات أو القناعات؟

في إطار إجابتنا علىٰ هٰذا التَّساؤل سننتقل إلىٰ طبيعة التَّأثير المتبادل بَيْنَ العلم والأيديولوجيا، فما تكلَّما فيه فيما سبق هو آليَّة التأثير، وفيما سيأتي سيكون الكلام علىٰ طبيعة هٰذا التَّأثير من خلال حاجة الأيديولوجيا للعلم وحاجة العلم للأيديولوجيا وطبيعة الأثر الذي تمارسه الأيديولوجيا في العلم.

أولاً: الأيديولوجيا تعرقل العلم

علىٰ أساس ما بيَّناه فيما قبل حق لنا أن نتساءل الآن، انطلاقاً من هيمنة الأيديولوجيا علىٰ تصورات الباحث وتحليلاته ومنهجيته «هل يمكن حقًّا تصور

أن للبحث، حَتَّىٰ الخالص أو الأساسي حيز مميز في (منأىٰ) من كل تأثير أيديولوجي، بَيْنَمَا هو واقع بَيْنَ حيِّزين آخرين ـ التأهيل الذي يتلقاه العالم وظروف العمل الميسرة له من جهة، والتأويل المعرفي أو الفلسفي والاستخدام التقاني Technology لأعماله التي تخضع بالتأكيد للتأثيرات الأيديولوجيَّة»[٦٥].

علىٰ رغم أنَّهُ «يبدو متعذراً تصور إصابة الفكر العلمي بعدوىٰ من أيديولوجيات سياسيَّة أو دينيَّة أو اجتماعيَّة أو اقتصاديَّة ـ إلا أننا لا نستطيع أن ننكر البتة أن هٰذه الأيديولوجيات ـ تؤثِّر في التَّعليم الذي يتلقاه عالم المستقبل ـ كما تؤثِّر أيضاً ـ في ظروف ممارسة التَّطبيقات العلميَّة، لٰكنَّنَا نجزم أنَّ ما من محكمة تفتيش قدرت أن تمنع **جاليلية** . ١٥٦٤م . ١٦٤٢م) من السير في اكتشاف قوانين الحركة (Mechanics) السماويَّة»[٦٦]. ولا أن تمنع أيَّة سلطة أيديولوجيَّة أُخْرَىٰ غيره من الباحثين والعلماء من تسجيل الاكتشافات والاختراعات المختلفة علىٰ اختلاف صعد العلم وتبياناها.

هٰذه حقيقة لا يمكن التنكر لها البتة، وعلىٰ رغم جلاء هٰذه الحقيقة وسطوتها فإنَّنا لا نستطيع أن ننكر أيضاً أن ثَمَّةَ ممارسات أيديولوجيَّة تحريضيَّة تحاول أن تطال العلم، إذ «إنَّ النَّظر إلىٰ رغباتنا علىٰ أنَّهَا حقائق هو كنه المسعى الأيديولوجي، فالأيديولوجيا أيًّا كانت تضعنا في عالم أمينٍ أخلاقيًّا مريح عقليًّا حيث تصرفاتنا مبررة ورغباتنا مسوغة»[٦٧].

---

[٦٥] . جيرار بوي: **العلم والأيديولوجيا** . ص٤٩ .

[٦٦] . م. س . ص ٤٨ .

[٦٧] . جان . وليام . لابيير: **ما معنى الأيديولوجيا** . ضمن كتاب **الأيديولوجيات في العالم الحاضر** . ص ١٧ .

ولذلك تسعىٰ الأيديولوجيا إلىٰ صوغ النَّتائج العلميَّة ـ بصورةٍ أو بأُخْرَىٰ ـ بما يتَّفق معها ويعزِّزها، ولأنَّ طبيعة البحث العلمي تشرئب دوماً إلىٰ إقصاء تأثيرات الذَّات العارفة كان «هناك إذن تأثير غير مباشر للأيديولوجيا في البحث العلمي بوساطة الغايات (التقانية) المفروضة علىٰ العالم، والوسائل الموضوعة في تصرفه»[٦٨].

وإلىٰ جانب هٰذه التَّأثيرات التَّحريفيَّة التي نستطيع أن نسمها بأنَّها لاشعوريَّة، هناك تأثيرات تحريفيَّة شعوريَّة، قصديَّة كما أبنَّا من قبل، هي أخطر ما في الموضوع، إذ يلجأ الباحث إلىٰ تزوير الحقائق العلميَّة بصورٍ متعدِّدة ومباشرة. وينقلها بعد هٰذا التَّزييف علىٰ أنَّهَا حقائق علميَّة قاد إليها البحث والتَّجريب، وكثيراً ما يحدث مثل هٰذا، ومن أمثلة ذٰلك ما فعله العالم الألماني **إرنست هيكل** . E. Heackel . ١٩١٩م الذي «زوَّر مرَّة صورة الجنين حيوان حَتَّىٰ تبدو قريبة الشبه بجنين الإنسان، فيثبت بهٰذا نظريته في التَّطور»[٦٩]. ومن الأمثلة السَّاطعة علىٰ ذٰلك أيضاً «تنشيط أجهزة المخابرات الأميركيَّة لدراسات علم الأناسة ـ Anthropology حول الشعوب المتخلِّفة»[٧٠]. متطلعة من وراء ذٰلك إلىٰ أغراض متعدِّدة لَعَلَّ أهمَّها تعزيز هيمنتها عَلَىٰ هٰذه الشُّعوب بتكريس تخلف هٰذه الشُّعوب عبر آليَّة داخليَّة نابعةٍ من اعتقاد هٰذه الشُّعوب بأنَّهَا متخلِّفة بالطبيعة والخلقة ولن ينفعها سعي ولا جهد للخروج من هٰذه البوتقة.

---

[٦٨] . جيرار بوي: **العلم والأيديولوجيا** . ص ٤٨ .

[٦٩] . د. توفيق الطويل: **أسس الفلسفة** . دار النهضة العربية القاهرة . ط ٦ . ١٩٧٦م . ص ٢٠٧ .

[٧٠] . د. نايف بلوز: **مناهج البحث في العلوم الاجتماعية** . مطبعة الداودي . دمشق ١٩٨٤م . ص ٢٤١ .

وبالاستناد إلىٰ ذٰلك لا يمكننا إلا أن نوافق **باريون** علىٰ أنَّهُ قد «كشف المشروع الأيديولوجي عن قصره في استيعاب الواقع وفهمه، والإسهام في بناء صرحه وتكوينه»[٧١].

عرقلة الأيديولولوجيا للعلم لا تتوقَّف عند تشويه الحقائق وتزويرها وحرفها عن مسارها وتصوريها علىٰ عكس أو ضدَّ ما هي عليه أو علىٰ الأقلِّ تصوريها خلاف ما هي عليه وإنما يتعدىٰ ذٰلكَ في كثير من الأحيان إلىٰ تعطيل عن التَّفكير السَّليم وشلِّ قدراته في الوصول إلىٰ الحقائق.

إنَّ الإنسان، والباحث إنسان بطبيعة الحال، عندما يضع في تصوره نتيجة قبليَّةً ويسعىٰ لإثباتها بلي عنق العلم سيهدر وقته في إثبات ما لا يمكن إثباته وبرهنة ما لا يمكن البرهان عليه. عندما أقرر قبليًّا أنَّ للمثلث أربعة أضلاع وأريد أن أبرهن ذٰلكَ سأقضي العمر وأنا أحاول ذٰلكَ ولن أفلح. إنَّ من يحمل فكرة أيديولوجيَّة قبليَّة لن يختلف عن هٰذه الحال بحال من الأحوال من ناحية المنهج والنتيجة. وبذٰلك تمارس الأيديولوجيًّا تأثيرها السَّلبي في العلم وتعرقله. الأمثل علىٰ ذٰلكَ كثيرة ويمكن أن تضع ما شئت منها شاهداً ومثالاً.

ثانياً: حاجة العلم للأيديولوجيا

قد يبدو من قبيل المفارقة أن نقول إنَّ العلم بحاجة إلىٰ الأيديولوجيا وقد سبق وأشرنا قبل قليل إلىٰ أن الأيديولوجيا تلعب دوراً بارزاً في كثيرٍ من الأحيان في عرقلة مسيرة العلم وحرفه عن مساره الحقيقي، والحقُّ أن تعقد العلاقة

٧١. ياكوب باريون: **ما هي الأيديولوجيا؟**. ص ٣٠. ٣١.

وتشابكها بَيْنَ الأيديولوجيا والعلم يجعل الحديث عن هٰذين الدورين المتناقضين حديثاً مسوغاً ومشروعاً، لأنَّ هٰذا ما يشهد به الواقع ويؤكِّده، ذٰلك أنَّ «الأيديولوجيا لا تؤدي بالضَّرورة إلىٰ انطماس الصُّورة الواقعيَّة لموضوع التَّفكير وأنَّ العلاقة بَيْنَ الأيديولوجيا والمصلحة لا تحول بالضرورة دون اكتشاف ماهيَّة الظواهر المدروسة»[٧٢].

وكلما كان الباحث متجرداً أكثر، ميالاً إلىٰ الموضوعيَّة، نزاعاً إلىٰ عدم التدخل في سيرورة البحث العلمي: وكلما كان موضوع البحث مستقلاً أكثر عن الذَّات العارفة، كان الوصول إلىٰ الدقة ممكناً أكثر، وبغضِّ النَّظر عن ذٰلك كلِّه فإنَّ «العلم ينمو بوصفه عمليَّة معرفيَّة اجتماعيَّة في شروط تاريخيَّة واجتماعيَّة وسياسيَّة وفكريَّة معيَّنة. ويمكن القول إنَّ لهٰذه الشُّروط حدوداً وآفاقاً وإمكانيات يتعذر تخطيها»[٧٣] وكأن نمو العلم بذٰلك مرتبطٌ بالغايات الأيديولوجيَّة، والشُّروط والظُّروف المشخَّصة المحيطة بهٰذه الأيديولوجيا. وليغدو التَّطور العلمي جزءاً من آليَّة كل أيديولوجيا شاءت أم أبت، وهٰذا حقٌّ لأنَّ «المعرفة في المجال الاجتماعي لم تجري إلا من موقع أو تطلع اجتماعي معين، والتَّقدُّم العلمي لم ينتجه أناس حياديون أو مترفعون عن صراعات عصرهم وهموم البشريَّة ومصالحها، بل بالدرجة الأولىٰ أولٰئك الذين يحملون في صدورهم مطامح وعواطف كبرىٰ وفي رؤوسهم مثلاً عليا محركة، ويمثلون مطامح فئات اجتماعيَّة ويعملون للدِّفاع عنها»[٧٤].

---

[٧٢] . د. نايف بلوز: **مناهج البحث في العلوم الاجتماعية** . ص ٢٣٩.

[٧٣] . م. س . ص ٢٣٧.

[٧٤] . م. س . ص ٢٤١.

وبالاستناد إلىٰ هٰذه الفكرة ذاتها وإلىٰ أن عمليَّة المعرفة بحدِّ ذاتها تمثل صراعاً بَيْنَ الذَّات الباحثة والواقع أو موضوع المعرفة، يمكننا القول «إن عمليَّة المعرفة وسر ولادة الأفكار تعنيان صراعاً فاجعياً (Dramatic) ليس بَيْنَ الواقع وبَيْنَ محاولاتنا إدراكه فحسب، بل بَيْنَ هٰذه المحاولات نفسها وبَيْنَ الأفكار، التي هي بمكانة نتائج للمحاولات، كما وينهض صراع المعرفة البشريَّة العظيمة باعتباره بحثاً عن الحقيقة واستكمالاً لحوار علمي يبلغ من العمر (آلاف) السنين، وصراعاً متَّقداً بَيْنَ الأفكار، توجهه وتحرض عليه عوامل ليست دائماً جوهريَّة في العلم»[٧٥].

«وهٰكذا يغدو التَّعدُّد الأيديولوجيُّ نفسه شرطاً ملائماً لتقدُّم البحث العلميِّ ولإجراء انفتاحات تحدُّ من دور العوامل الحقيقيَّة لعمليَّة البحث العلمي، فالمشكلة ليست في تحرير العلم من التقويم الأيديولوجي الذي يتضمن ولا شكَّ ما لا يدخل في أيَّة معرفة علميَّة، بل في إدراك أن الموضوعيَّة العلميَّة لا تقتضي قطع الصلة بكل تقويم أيديولوجي، وأن التَّقدم العلميَّ مرتهنٌ بحوافز أيديولوجيَّة مناسبة، وإن كانت خارجيَّة بالنسبة للحركة المنطقيَّة لعمليَّة البحث العلمي»[٧٦] ولذٰلك فإنَّنا نستطيع القول بحق: لا علم من دون أيديولوجيا، ولا أيديولوجيا من دون علم، فالأيديولوجيا تلد العلم والعلم يلد الأيديولوجيا في الوقت ذاته، أو لنقل إنَّ كليهما يخرج الآخر من ذاته ليحتضنه ويحيطه ببالغ رعايته وعنايته.

إن حاجة العلم للأيديولوجيا تشبه حاجة النَّار إلىٰ النَّفخ فيها. إن تأجج الحماسة الأيديولوجيَّة في نفس الباحث تدفعه للعمل بفاعليَّة أكبر

[٧٥]. أ. ي. إيليين: **البحث العلمي والصراع الفلسفي في البيولوجيا**. ص ١٠.

[٧٦]. نايف بلوز: **مناهج البحث في العلوم الاجتماعية**. ص ٢٤٣.

وإثـارة أكـبر للكشـف عمَّـا يؤكِّـد حقائقـه أو قناعاتـه الأيديولوجيَّـة بنتـائج علميَّة جديدة، ألأمر الذي يؤدِّي غالباً إلىٰ مزيد من الكشوفات العلميَّة التي تتفجر هي ذاتها وتتشظى إلىٰ إنجازات تقانيَّة وعمليَّة متنوعة لم تكن موجودة في الحسبان. وبهٰذا الطريق أصلاً كانت كثير من الاكتشافات العلميَّة والتقانيَّة والاختراعات.

علىٰ أنَّ ذٰلكَ لا ينفي ولا يغير من حقيقة أنَّ الأيديولوجيا تمارس تأثيراً سلبيًّا خطيراً في العلم وتقف حجر عثرة أمامه إذا كانت الأفكار التي يحملها الباحث خاطئة. وفي الوقت ذاته يجب أن لا نضع في أذهاننا أنَّ وصول الباحث إلىٰ نتائج صحيحة لا يعني بالضرورة أنَّ أيديولوجيته صحيحة أو الأفكار أو القناعاتا لتي يحملها صحيحة. وهٰذا سرٌ من أسرار الفاعليَّة الأيديولوجيا التي يستعصي علىٰ الحل، فكثير من أصحاب العقائد أو القناعات الخاطئة وصلوا إلىٰ نتائج أو كشوفات علميَّة متميزة في سياق بحثهم عن براهين أو تأكيدات لقناعاتهم الخاطئة.

خاتمة

هنا وقفنا عند أمر متناقضين شكلاً ومضموناً. ففي حين أنَّ الأيديولوجيا تمارس تأثيراً سلبيًّا خطيراً في العلم وتعرقل نموه وتقدمه وتطوره فإنَّ العلم في الوقت ذاته يحتاج إلىٰ الأيديولوجيا.

صحيحٌ أنَّ هٰذا تناقض منطقي إلا أنَّهُ من النَّاحية العمليَّة حقيقة غير قابلة للشَّكِّ. لنتذكر جيِّداً كيف أن النَّار لا تشتعل في الماء ولٰكنَّهَا تتأجج بالماء. هل المثال واضح بما يكفي؟

إذا أردت أن تشعل نار بقماش أو حطب في الماء فلن تفلح ولن تستطيع ذٰلكَ. وأيضاً إذا كان الماء أكبر من النَّار أو أقوى فإنَّ النَّار تنطفئ ولا تستمر في الاشتعال. هٰذه هي حال عرقلة الأيديولوجيا للعلم.

ولٰكن إذا كانت النار مشتعلة بقوَّة وألقيت عليها قليلاً من الماء فإنها تتأجج وتزداد اتقاداً. هٰذه هي حالة حاجة العلم للأيديولوجيا.

ولٰكن هل تحتاج الأيديولوجيا للعلم؟

لننظر في ذٰلكَ في الفقرة التالية.

الفصل التاسع

حاجة الأيديولوجيا للعلم

حاجة الأيديولوجيا إلىٰ تعزيز وحدتها باستمرار ودعم قوَّتها في الإخضاع تلزمها بصراع دائم ضدَّ (الهرطقة) هٰؤلاء الأعداء الدَّاخليين، فالهرطقة تؤدِّي وظيفتين: أنَّها، من جهةٍ، تتيح للأيديولوجيا أن تدخل التَّغير بأن تنفيه بما هو كذٰلك وتخفيه علىٰ وجه الدِّقة في تأكيد مساسيَّة القول المقدس الذي ينبغي السهر علىٰ طهارته من أولٰئك الذين زلوا؛ وهي من جهةٍ ثانيةٍ، تتيح لجهاز أيديولوجيٍّ تهدِّد الشَّيخوخة ملاكه أن يتجدَّد.

أندريه أكون

كما أنَّ للأيديولوجيا آليَّة تأثيريَّة مزدوجة، شعوريَّة ولا شعوريَّة، كذٰلك فإن استفادة الأيديولوجيا من العلم ذات آليَّة مزدوجةٍ، مباشرة وغير مباشرة، فهي إما أن توجه دفة البحث العلمي ليصل إلىٰ نتائج تعززها وتؤكدها، وهٰذه الاستفادة المباشرة، وهي نابعة من صميم خصائص الأيديولوجيا، وقد ميَّز **كارل لوفنشتاين** الأيديولوجيا انطلاقاً من هٰذا المعنىٰ بعنصرين أساسيين «حَيْثُ يرىٰ أنَّهَا تشتمل عنصراً نظريًّا وعنصراً عمليًّا، لكي يصل من هٰذا إلىٰ نشوء الأيديولوجيا يقتضي تحويل العنصر النظري الذي تستمده أساساً من النظريات

الفلسفيَّة إلىٰ نظرة شاملة للعالم، وذٰلكَ حين يقوم بتحويل هٰذه النَّظريات إلىٰ عقائد جامدة، وتجريها علىٰ نحوٍ قاطعٍ دافعٍ، كما أنَّها تتشبث بها وتعتنقها كالعقائد الإيمانيَّة»[٧٧].

أمَّا الاستفادة غير المباشرة فتتمثل في تسقط الأيديولوجيا للنتائج العلميَّة التي تدعمها وتعزِّز مواقفها، من دون أن يقصد أصحابها بالأصل أي موقف أيديولوجي **فبافلوف** . E. P. Pavlov مثلاً الذي «اكتسبت دراساته أهميَّة كبيرة جدًّا في أوساط الجدل (Dialacric) السُّوفيتي كان كثيراً ما يكرِّر أنَّهُ يجهل كلَّ شيءٍ عن هٰذه الفلسفة، ولم يكن لهٰذا الأمر أيَّة أهميَّة إذ إنَّ آثاره تحتمل منهجيَّة متحققة بالفعل أخذ آخرون علىٰ عاتقهم استخلاصها استخلاصاً تأملياً»[٧٨].

والحقيقة أن حاجة الأيديولوجيا للعلم مرتبطةٌ بآليَّةٍ معيَّنةٍ ومحدَّدةٍ يفرضها موقع الأيديولوجيا ومكانتها إزاء ذاتها أولاً، وفي مواجهة الأيديولوجيات الأخرىٰ المنافسة والمناهضة، ويمكننا أن نجمل مركبات هٰذه الآية بالعناصر التالية:

أولاً: تعزيز الوحدة

إنَّ كل أيديولوجيا بحاجة ماسَّةٍ ودائمةٍ إلىٰ تعزيز وحدتها وتماسكها الدَّاخلي كيما تستطيع الصُّمود والبقاء و«حاجة الأيديولوجيا إلىٰ تعزيز وحدتها باستمرارٍ ودعم قوتها في الإخضاع تلزمها بصراع دائم ضدَّ (الهرطقة) هؤلاء الأعداء الدَّاخليين، فالهرطقة تؤدي وظيفتين: أنَّهَا، من جهة، تتيح للأيديولوجيا أن تدخل التغير بأن تنفيه بما هو كذٰلكَ وتخفيه علىٰ وجه الدِّقَّة في تأكيد مساسيَّة القول المقدس الذي ينبغي السَّهر علىٰ طهارته من أولئك الذين زلوا؛

٧٧ . م. س . ص ١١٠.

٧٨ . جان بياجه: **وضع علوم الإنسان في منظومة العلوم** . ص ١٢٢.

وهـي مـن جهـةٍ ثانيـةٍ، تتـيح لجهـاز أيـديولوجي تهـدِّد الشـيخوخةُ مِلاكَـهُ أن يتجدَّد»[٧٩] ولتحقق هٰذا الغرض فهي بحاجة لا إلىٰ العلم وحده بل إلىٰ مختلف ضروب المعرفة.

ثانياً: تأكيد العصمة

ونعني بذٰلك أنَّ الأيديولوجيا بحاجةٍ دائماً إلىٰ أن تظهر أمام حاملها، أمام أفرادها خصوصاً، والآخرين عموماً، علىٰ أنَّها هي الرؤية الصَّحيحة الصَّادقة التي تفسر ظواهر الكون والحياة تفسيراً صحيحاً معصوماً من الغلط ومن الأغراض ومن الهوىٰ، «وبالنظر إلىٰ أنَّ الواجب علىٰ الأيديولوجيا أن تؤكِّد عصمتها، فإنَّهُ لا يمكنها أن تبحث عن شرح لخيبات أملها في تحليل لذاتها، وفي عدم التطابق بَيْنَ قوتها ومسلكها.

إنَّها مسوقة بالتالي إلىٰ أن تختار فكرةَ عدوان العدو والتآمر علىٰ أنَّهَا الشَّرح. إنَّهَا لإرادة عدوة وخبيثة تلك التي تشرح كلَّ شيءٍ. فثَمَّة إذن سيرورة شبيهة بالمحاكمة الهذانيَّة، (الهذيانيَّة)، التي ترىٰ دائماً في الخارج سبب نزاعٍ داخليٍّ محجوبٍ، وتبسط ضرباً من (الجدل) اللامحدود في الاضطهاد الذي يتصف فيه فعل الآخر، أيًّا أكان هٰذا الفعل، بأنَّهُ كاشفٌ عن نفاقه، فالصِّراع ضدَّ عدوٍّ خارجيٍّ وتحوُّل التَّمزق الدَّاخلي إلىٰ عداوة خارجيَّة وعدم القول علىٰ هٰذا النَّحو، ـ ذٰلك هو هوىٰ الأيديولوجيا»[٨٠] وهذا ما يصعب تحقيقه أيضاً إلا باجتذاب الحقائق العلميَّة التي تتفق مع هٰذه الأيديولوجيا، والمغالاة في إظهارها، والاستفاضة في الحديث عن مدىٰ تأكيدها وتوافقها مع هٰذه الأيديولوجيا،

٧٩ ـ أندره آكون: **الأيديولوجيا** ـ ٢٢٩.

٨٠ ـ م. س ـ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

وإظهار الخصوم علىٰ أنَّهُم يشوِّهون العلم ويعبثون بالحقائق العلميَّة بسبب بطل دعواهم وزيف مبادئهم وأفكارهم.

ثالثاً: الهيمنة النفسية

«إنَّ حاجة الأيديولوجيا إلىٰ أن تضفي الطَّابع النَّفسي علىٰ كلِّ شيءٍ نتيجة طبيعيَّة لهذه السَّيرورة، فإذا كانت كوارث صلاتها مع العالم تحيل إلىٰ شيء آخر غير العمل المخرب للعدو، فإنَّهَا سترى قيمة تحليلها موضوعة موضع التَّساؤل»[٨١] وخير وسيلة تحول دون إثارة التساؤلات هي أن تدخل الأيديولوجيا إلىٰ نفوس أفرادها بصورة محببة ومقنعة كيما تهيمن علىٰ هٰذه النفوس وتبعد عن ذاتها أخطار الشكوك والتساؤلات، ونفاذ الأيديولوجيا إلىٰ نفوس الأفراد يتطلب منها أن تلبس اللبوس المحبب المقبول، الذي يرضي ميول هٰؤلاء الأفراد من جهة، وأن تكون مقنعة من جهةٍ ثانيةٍ، وحَتَّىٰ تكون مقنعة لا بُدَّ لها أن تلبس لبوس العلم، وتستشهد لتدعيم ذاتها بالحقائق العلميَّة الدامغة، أو حَتَّىٰ الإدعاء بأنَّهَا دامغة كيما يسلم بها الأفراد من دون أدنىٰ مناقشة أو جدال.

رابعاً: عقلنة ذاتها

إنَّ وحدة الأيديولوجيا وتماسكها علىٰ هٰذا النَّحو لا يعدو كونه وحدة بصلات هشَّةٍ وتماسكاً بروابط واهية، أي إنَّ هٰذه الوحدة وهٰذا التَّماسك غير مقبولين ولا معقولين .كل أيديولوجيا بقدر وحدود تزاد وتنقص من أيديولوجيا إلىٰ أُخْرَىٰ ـ ولذلك فإنَّ كلَّ أيديولوجيا بحاجةٍ ماسَّةٍ إلىٰ أن تضفي علىٰ ذاتها طابع العقلانيَّة، وأنَّهَا ليست ضرباً من الخيال أو التوهم. أو الابتعاد عن أساليب

٨١ ـ م. س. ص ٢٣٠.

المعالجة والتَّحليل العقليَّة، وهٰذا يعني بالضَّرورة حاجة الأيديولوجيا إلىٰ الاستناد إلىٰ الحقائق العلميَّة والتَّعويل عليها في شرح ذاتها وتبيانها لأفرادها وللآخرين.

بل إنَّ كلَّ أيديولوجيا تسعى جاهدةً لتؤكِّد أنَّ النَّتائج والحقائق العلميَّة تنهد لتصبَّ في معينها وتتجه لتؤكِّد صحَّة مبادئها وأفكارها ودقَّتها. ولولا تحريف الخصوم لكانت قد حقَّقت ذٰلكَ منذ زمنٍ بعيدٍ، وبهذا المعنى يرى **لينين** أنَّهُ «علىٰ الرَّغْمِ من أنَّ أيًّا من المدارس الطبيعيَّة في أيِّ مجالٍ من مجالات المعرفة الطبيعيَّة لم تستطع الارتفاع إلى مستوى الماديَّة (الجدليَّة) مباشرة وتوًّا. فإنَّ الفيزياء المعاصرة هي التي تقوم بهٰذه الخطوة، وسوف تقوم بها، بيد أنَّهَا ـ ولأنَّهَا في حضن المثاليَّة كما يرىٰ ـ لا تخطو الطَّريقة الصَّحيحة الوحيدة، نحو المعرفة الطبيعيَّة الوحيدة مباشرةً، بل مداورةً، ليس عن وعي بل بعقوبة، ومن دون أن ترىٰ بوضوحٍ هدفها النِّهائي: بل هي تقترب منه متلمسة إيَّاه ومترنحةً حَتَّىٰ الارتدادات إلىٰ الوراء. إنَّ الفيزياء المعاصرة منطرحةً تعاني مخاضاً، إنَّهَا تلد الماديَّة (الجدليَّة)»[٨٢].

خاتمة

من حتميَّة **لينين** ووثوقيته أعود لأؤكِّد من جديدٍ ما بدأت به البحث وهو أنَّهُ بفضل الماركسيَّة اشتهرت الأيديولوجيا وكان يمكن أن تموت ويموت ذكرها، تحولت إلىٰ اصطلاح يتردَّد علىٰ كل لسان.

ولٰكنَّ هٰذا الفضل علىٰ انتشار الأيديولوجيا واشتهارها وتحميلها كل هٰذا الزخم الذي وصلت إليه لم يكن مع الأسف بما تستحق وتحتاج وإنما كان

٨٢ ـ أ. ي. إيلين: **البحث العلمي والصراع الفلسفي في البيولوجيا**. ص ٢٠.

بمبالغات وتهويلات حوَّلت الأيديولوجيا إلىٰ بعبعين في آن معاً؛ بعبع المعنىٰ المريب السيء الذي يوجب الشعور بالعار من وجوده، وبعبع كونها فكرة الخصم والعدو. وليست الأمر ينتهي هنا.

أخطر ما وقعت فيه الماركسيَّة مشتقاتها هو أنَّها انتفخت ذاتها الأيديولوجيَّة انتفاخاً مريعاً جاوز حدود الخيال وجاوز قدرة المنطق علىٰ تقبلها أو هضمها ومع تضخمها الهائل لهٰذا فإنَّهُم لم يروا مبالغتهم في تقدير ذاتهم ولم يروا مبالغتهم في وثوقيتهم وجبريتهم التي لا تطاق بحال من الأحوال علىٰ الرَّغْمِ من كل الانتقادات التي وجهت لهم من هٰذا الجانب التي كانت لتضع حدًّا لتطرفهم الشديد لو أنَّهُم لم يتعاملوا معها تعاملاً أيديولوجيًّا وفهموها علىٰ أنَّها هجوم معاد يجب التصدي له.

الحقيقة أنَّ **ماركس** ذاته بدأ هٰذه الوثوقيَّة العمياء في نفسه وفلسفته وأيديولوجيته حَتَّىٰ اشتهر قول ناقديه بأنه أراد أن يلوي عنق التاريخ ليصدق تحليله. فإذا كان **ماركس** قد لوىٰ عنق التاريخ فإن الماركسين لووا عنق التاريخ وكسروا عنق المنطق... فكتبوا علىٰ نفسهم حتميَّة الانهيار التي تبدو بواردها جليًّا في الآونة الأخيرة.

قبل بضع أشهر كنت أمشي وأحد أساتذتي داخلين إلىٰ الكليَّة فعلم أني صائمٌ، وكنَّا في رمضان، كان هٰذا الأستاذ سليط اللسان بطبيعته فاستهزأ بالصيام واقترب من بالاستهزاء من رسول الله، فقاطعته قائلاً:

ـ لما التسرع والارتجال؟ هٰذا مقدس، دعك من الجانب الدِّيني ألا يوجد مقدس ترفض أن يسيء أحد إليه؟

قال: لا يوجد شيء فوق النَّقد.. لا يوجد مقدَّس.

لا يوجد شيء فوق النَّقد، ولا يوجد شيء فوق القداسة العبارة المشهورة التي يكررها الماركسيون خاصَّة. فقلت له وأعي ما أريد من القول:

. يعني برأيك ألا يوجد شخص يمكن أن يكون كلامه غير قابل للنَّقد؟

فقال بسرعة ومن دون تردُّد:

. فقط **ماركس** غير قابلٍ للنَّقد.

قلت له: **ماركس** إنسان يعني أنَّهُ يمكن أن يوجد إنسان أفهم منه قبله أو بعده، وكلامه أكثر دقة منه أيضاً.

قال: مستحيل.

قلت له: ليس مستحيلاً، طالما هو إنسان مثلنا من لحم ودم فاحتمال مجيء من هو أفهم منه أمر ممكن جدًّا... بل يوجد فعلاً من هو أفهم منه...

قلت ذٰلكَ وفي بالي ما فيه، فانتفض وقد تفاجئ بقول وسألني مندهشاً: من؟

قلت له: أنت.

ولم يكن هٰذا ما في بالي في حقيقة الأمر ولكني أردت إنهاء الكلام في الموضوع، فضحك ضحكة قهقهاويَّة...

بهٰذه العقليَّة أطاح الماركسيون بكلِّ قداسة وحوَّلوا اللامقدس إلىٰ مقدس فنسفوا الأيديولوجيا اليساريَّة نسفاً جذريًّا. قالوا بأنَّ كل من ليس منهم غير معقول ولا منطقي، وكل من معهم منطقي ومعقول. لقد كسروا عنق المنطق ذاته، وانعدمت الموضوعيَّة انعداماً مربكاً.

فإذا انتقلنا إلىٰ تعاملهم مع العلم والمعرفة والأخلاق لوجب أن نجد عجباً علىٰ الأقلِّ استناداً إلىٰ ما رأيناه، وبالفعل هٰذا ما كان. كتبت الموسوعة الفلسفيَّة

السوفيتيَّة في تعريف كلمة السِّيبرنيتيك قائلةً: «هو علم استعماريٌّ لا حاجة لمعرفته».

أيمكن أن يَتَقَبَّلَ عاقلٌ ذٰلكَ؟

علىٰ ذٰلكَ قس ما بقي فلن يكون القياس صعباً أبداً.

ثبت المراجع

- كارل مانهايم: **الأيديولوجيا والطوباوية** . ترجمة عبد الجليل ضاهر . بغداد . ١٩٦٨م.
- رشيد مسعود: **ملاحظات حول الفهم الفلسفي للأيديولوجيا** . مجلة الفكر العربي العدد . ١٥ . ١٩٨٠م.
- رشيد مسعود: **مادة الأيديولوجيا** . ضمن **الموسوعة الفلسفية العربية** . المجلد الأول . المصطلحات والمفاهيم . معهد الإنماء العربي . ١٩٨٦م.
- عبد الله العروي: **مفهوم الأيديولوجيا** . دار الفارابي . المركز الثقافي العربي/الدار البيضاء . ١٩٨٠م.
- ميشيل فادية: **الأيديولوجيا؛ وثائق من الأصول الفلسفية** . ترجمة أمينة رشيد وسيد البحراوي . دار التنوير . بيروت . ١٩٨٢م.
- ياكوب باريون: **ما هي الأيديولوجيا؟** . ترجمة أسعد رزوق . الدار العلمية . بيروت . ١٩٧١م.
- كارل ماركس وفريدريك إنجلز: **الأيديولوجيا الألمانية** . ترجمة فؤاد أيوب . دار دمشق . دمشق . ١٩٧٦م.
- لويس ألتوسر: **الأيديولوجيا وأجهزة الدولة الأيديولوجية** . ضمن كتاب: دراسات لا إنسانوية من لويس ألتوسر وجورج كانفليم . ترجمة سهيل القش . الموسوعة الجامعية للدراسات والنشر . بيروت . ١٩٨١م.

- اندره آكون: **الأيديولوجيا** . ضمن كتاب **المجتمع الحديث** . ترجمة وجيه أسعد . وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٨٣م.
- أبو البقاء الكفوي: **الكليات** . وزارة الثقافة . دمشق ج٣ . ١٩٨٢م.
- صادق جلال العظم: **مناهج البحث في العلوم التجريبية** . مطبعة خالد بن الوليد . دمشق . ١٩٨١م.
- جيرار بوي: **العلم والأيديولوجيا** . ضمن كتاب **الأيديولوجيا في العالم المعاصر** . ترجمة صلاح الدين برمدا . وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٨٣م.
- لويس ألتوسر: **من رأس المال إلى فلسفة ماركس** . ضمن كتاب **قراءة رأس المال** . بإشراف لويس التوسر . ترجمة تيسير شيخ الأرض . وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٧٢م.
- صلاح قنصوه: **الموضوعية في العلوم الإنسانية** . دار التنوير . بيروت ط٢ . ١٩٨٤م.
- م. أندرييفا: **الدور المنهجي للنظرية في مختلف مراحل البحث الاجتماعي** . مجلة الفكر العربي . العدد /٦/ . ١٩٧٨م.
- جان بياجه: **وضع علوم الإنسان في منظومة العلوم** . ترجمة الدكتور أسعد عربي درقاوي . ضمن كتاب **الاتجاهات الرئيسية للبحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية** . وزارة التعليم العالي . دمشق . ١٩٧٦م.
- ي. إيليين: **البحث العلمي والصراع الفلسفي في البيولوجيا** . ترجمة محمد أحمد شومان . دار الفارابي . بيروت . ط١ . ١٩٨٤م.

- جان . وليام . لابيير: **ما معنى الأيديولوجيا** . ضمن كتاب **الأيديولوجيات في العالم الحاضر** . ترجمة صلاح الدين برمدا . وزارة الثقافة . دمشق . ١٩٨٣م.
- توفيق الطويل: **أسس الفلسفة** . دار النهضة العربية القاهرة . ط ٦ . ١٩٧٦م.
- نايف بلوز: **مناهج البحث في العلوم الاجتماعية** . مطبعة الداودي . دمشق ١٩٨٤م.

أحمد
التكنولوجيا والعلم

- أعاجيب السياسة الأمريكية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٨م.
- أسس التوثيق؛ نحور نظرية عربية في التوثيق . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠١١م.
- آفاق التغير الاجتماعي والقيمي؛ الثورة التقانية والتغير القيمي . الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥م.
- آفاق التمدد الفارسي . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- الأمم المتحدة بين الاستقلال والاستقالة والترميم . دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م.
- أَميرة النَّار والبحار (شعر) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٧م.
- أَنا صدى الليل (شعر) . دار الأَصالة للطباعة – دمشق – ١٩٩٥م.
- أنا لست عذري الهوى (شعر) . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٩م.
- أنا والزمان خصيمان . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥م.
- أنا وعيناك صديقان (شعر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠١م.
- أُنشودة الأَحزان (شعر) – دار الأصالة للطباعة – دمشق . ١٩٩٦م.
- انهيار أسطورة السلام؛ مصير السلام العربي الإسرائيلي . ط١: مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٦م. ط٢: دار الفكر الفلسفي . دمشق . الطبعة الثانية ٢٠٠١م.
- انهيار إنسانية الإنسان . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.

- انهيار الشعر الحر – دار الثقافة – دمشق (ط١) ١٩٩٤م. ـ دار الفكر الفلسفي . دمشق – (ط٢) ٢٠٠٣م.
- انهيار دعاوى الحداثة – دار الثقافة – دمشق – ١٩٩٥م.
- انهيار قيم المعارضة العربية . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- انهيار مزاعم العولمة؛ قراءة في تواصل الحضارات وصراعها . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٠م.
- انهيار النظام العربي . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- انهيار وهم الحوار بَيْنَ الحضارات . إيبرو للطباعة . بيروت . ٢٠١٦م.
- البحيري؛ عبقرية وغربة وجمال . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٦م.
- بديع الكسم . وزارة الثقافة . دمشق – ١٩٩٤م.
- بشرية عمياء عرجاء؛ مقالات سياسية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٩م.
- تصنيف المقولات الجمالية . حدوس وإشراقات للنشر . عمان . ط٢، ٢٠١٣م.
- تطوير التعليم العالي؛ الواقع والمشكلات والمقترحات . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٧م.
- تفجيرات أيلول وصراح الحضارات؛ الولايات صنعت الحدث لتصنع المستقبل . دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٣م.
- تمهيد في علم الجمال . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٧م.
- الثوار والمعارضة والثورة السورية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الثورة ثورة في كل شيء . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٦م.
- الثورة السورية والمؤامرة الكونية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الثورة السورية وأزمة القيادة . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- الثورة السورية والحلول التهريجية . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.

- الثورة السورية والنظام السوري . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الجمال وعلم الجمال . حدوس وإشراقات للنشر . عمان . ط٢، ٢٠١٣م.
- الحداثة بين العقلانية واللاعقلانية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٩م.
- الحرب على الدولة الإسلامية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- حوار في الذاكرة بيني وبنيتي . دار حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٥م.
- خطر نجاح الإسلام في السلطة . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- الدخيل على المصلحة (قصص) – ن . م – دمشق – ١٩٩٣م.
- دفاع عن الفلسفة ؛ الفلسفة ثرثرة أَم أُمُّ العلوم ؟ – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- رئيس وأربعة فراعين . . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- سكر مالح (قصص) . حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٦م.
- شظايا على الجداران (خواطر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠٧م.
- صوت السوط (مسرحية) . دار حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٦م.
- الطريق إلىٰ الإبداع؛ نحو نظرية جديدة . إيبرو للطباعة . ٢٠١٦م.
- العالم على البركان . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- العالم في مواجهة الإسلام . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- عالم مجنون؛ المضحك المبكي في السياسة الأمريكية . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٨م.
- العدوان الأمريكي على سوريا؛ حقيقة الموقف الأمريكي من الثورة السورية . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٦م.
- العدوان الروسي على سوريا؛ مشروع إبادة الشعب والحضارة . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٦م.

- العرب أعداء أنفسهم . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٤م.
- العرب جثة تنهشها الكلاب . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٩م.
- عفيف البهنسي والجمالية العربية . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠٨م.
- علم الجمال الإعلاني . دار حدوس وإشراقات . عمان/ الأردن . ٢٠١٣م.
- علم الجمال المعلوماتي: نحو نظريَّة جديدة . دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- عواد من دون عود (قصص) — دار الأصالة للطباعة – دمشق – ٢٠٠٧م.
- غاوي بطالة (قصص قصيرة) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٦م.
- الغرب الجاني على نفسه . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- فلسفة الفن و الجمال عند ابن خلدون — دار طلاس — دمشق — ١٩٩٣م.
- فلسفة الفن والجمال عند التوحيدي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠٦م.
- فلسفة الأخلاق عند الجاحظ . اتحاد الكتاب العرب . دمشق . ٢٠٠٥م.
- في انتظار حمقاء (قصص قصيرة) . دار الأَصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠٥م.
- فيلا وعلبة حلاوة (قصص قصيرة جداً) — دار الأصالة للطباعة – دمشق – ٢٠٠٧م.
- قراءات في فكر بديع الكسم . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٨م.
- قراءات في فكر عادل العوا . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠١م.
- قضايا الفكر العربي المعاصر . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٧م.
- كاسيوس لونجينوس: الرائع؛ بحث جمالي فيمة الروعة . ترجنة ودراسة تقديم . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٨م.
- كتابة البحث؛ المفاهيم والقواعد والأصول . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠١١م.

- الكل يطلق المار النار على السوريين وثورتهم . دار العالم العربي . بيروت . ٢٠١٥م.
- كيف ستواجه أمريكا العالم؟ . دار السلام للطباعة . دمشق . ١٩٩٢م.
- لا تعشقيني (شعر) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.
- لبنان والمشروع الأمريكي؛ قراءة في الأزمة اللبنانية وتداعياتها . دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٥م.
- لبنان بَيْنَ حربين؛ الأزمة اللبنانية بَيْنَ الداخل والخارج . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٧م.
- لوحات من ألم الثورة . دار أنهار . بيروت . ٢٠١٤م.
- مختارات من دارسي التراث العربي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠٧م.
- المدخل إلى عصر النهضة العربية . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٦م.
- المذاهب الاقتصادية الكبرى . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٨م.
- المذاهب الجمالية . جامعة تشرين . اللاذقية . ٢٠٠٦م.
- مكيافيليَّة ونيتشويَّة تربوية: نحو سلوك تربوي عربي جديد . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٨م.
- ملحمة المجانين (ملحمة شعرية) . دار حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٥م.
- من رسائل أبي حيان التوحيدي . وزارة الثقافة . دمشق . ٢٠٠١م.
- من يسمم الهواء؛ ظاهرة السرقة في عالمي الفكر والأدب . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ٢٠٠٥م.
- الموت من دون تعليق (قصص قصيرة جداً) – دار الأصالة للطباعة . دمشق . ١٩٩٤م.

- نزيف العقل العربي؛ رؤية في هجرة الكفاءات العربية . العالم العربي . عمان . ٢٠١٦م.
- النظام الاقتصادي العالمي الجديد . مكتبة دار الفتح . دمشق . ١٩٩٣م .
- النظام الاقتصادي العربي؛ واقع ومشكلات ومقترحات . ط١: دار إنانا . دمشق . ٢٠٠٥م. ط٢: دار إنانا ٢٠١٠م.
- نهاية الفلسفة . دار الفكر الفلسفي . دمشق . ١٩٩٩م.
- هؤلاء أَساتذتي : من رواد الفكر العربي المعاصر في سوريا – دار الثقافة – دمشق – ١٩٩٤م.
- هؤلاء أَساتذتي : من رواد الفكر العربي المعاصر في سوريا (ط٢) – دار الفكر الفلسفي – دمشق – ٢٠٠٣م.
- همس الهوى (خواطر) دار الأصالة للطباعة . دمشق . ٢٠٠٨م.
- وظيفة الفن . حدوس وإشراقات للنشر . عمان . ٢٠١٣م.
- يصغر أمامك الكلم (شعر) . دار حدوس وإشراقات . عمان . ٢٠١٥م.

المحتويات

. الإهداء ٠٠٥
. مقدمة ٠٠٧
. الفصل الأول: ما العلم؟ ٠١٥
مقدمة ٠١٧
أولاً: في مفهوم العلم ٠١٨
ثانياً: خصائص العلم ٠٢٢
ثالثاً: ولادة العلم وتطوره ٠٢٤
رابعاً: تصنيف العلوم ٠٢٧
خاتمة ٠٣١
. الفصل الثاني: ما الأيديولوجيا؟ ٠٣٣
. الفصل الثالث: آلية التأثير الأيديولوجي ٠٤٥
مقدمة ٠٤٧
أولاً: شمولية الرؤية ٠٤٨
ثانياً: مصداقية الرؤية ٠٥٠
خاتمة ٠٥٣
. الفصل الرابع: التأثير الشعوري للأيديولوجيا ٠٥٥
. الفصل الخامس: التأثير اللاشعوري للأيديولوجيا ٠٦٧

. الفصل السادس: الفرق بين الأيديولوجيا والعلم ٠٧٩
مقدمة ٠٨١
أولاً: النسقية ٠٨٥
ثانياً: الإلزامية ٠٨٦
ثالثاً: التراكمية ٠٨٧
رابعاً: التتابعية ٠٨٨
خامساً: الجدة والأصالة ٠٨٩
خاتمة ٠٩٠
. الفصل السابع: العلاقة بين العلم والأيديولوجيا ٠٩١
مقدمة ٠٩٣
أولاً: تلازم العلاقة ٠٩٣
ثانياً: منطلق العلاقة ٠٩٥
خاتمة ١٠١
. الفصل الثامن: الأيديولوجيا تعرقل العلم ١٠٣
مقدمة ١٠٥
أولاً: الإيدولوجيا تعرقل العلم ١٠٥
ثانياً: حاجة العلم للأيديولوجيا ١٠٨
خاتمة ١١١
. الفصل التاسع: حاجة الأيديولوجيا للعلم ١١٣
مقدمة ١١٥
أولاً: تعزيز الوحدة ١١٦

ثانياً: تأكيد العصمة ١١٧
ثالثاً: الهيمنة النفسية ١١٨
رابعاً: عقلنة ذاتها ١١٨
خاتمة ١١٩
. ثبت المراجع ١٢٣
. صدر من كتب المؤلف ١٢٧
. المحتويات ١٣٣

IDEOLOGY AND SCIENCE

The Relationship Between Ideology, Science And Understanding

By

Prof. Dr. Ezzat Assayed Ahmad

138 pages

First edition

Tripoli 2017

All rights reserved

عزت السيد أحمد

الأيديولوجيا والعلم

العلاقة بين الأيديولوجيا والعلم والفهم

IDEOLOGY AND SCIENCE

The Relationship Between Ideology, Science And Understanding

By

Prof. Dr. Ezzat Assayed Ahmad

Tripoli 2017

هذا الكتاب

سيطر التفكير الأيديولوجي على الفكر البشري طيلة نصف القرن الأخير من القرن العشرين وهو فترة وجود الاتحاد السوفيتي، وبانتهاء الاتحاد السوفيتي وتفككه تراجع الاهتمام بالأيديولوجيا تراجعاً هائلاً عجيباً حَتَّى يمكن القول إنه انتهـــى تقريباً في السنوات الأخيرة وخاصة منذ حـــلول القرن الحادي والعشرين، فهل انتهت الأيديولوجيا، وكيف تنتهي أصلا؟ تم تأليف هذا الكتاب في السنوات الأخيرة من عمر سطوة الأيديولوجيا والتفكير الإيديولوجي ولكنَّهُ يرى أن الأيديـــولوجيا لم تنته بل ويؤكد الكاتب أنها لن تنتهي كيف يمكن أن يكون ذلك هذا هو الكتاب

عزت السيد أحمد

الأيديولوجيا والعلم

العلاقة بين الأيديولوجيا والعلم والفهم

دار فن وعلم
طرا 2017 بلس

IDEOLOGY AND SCIENCE

The Relationship Between Ideology, Science And Understanding

Prof. Dr. Ezzat Assayed Ahmad

First edition Tripoli 2017